INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

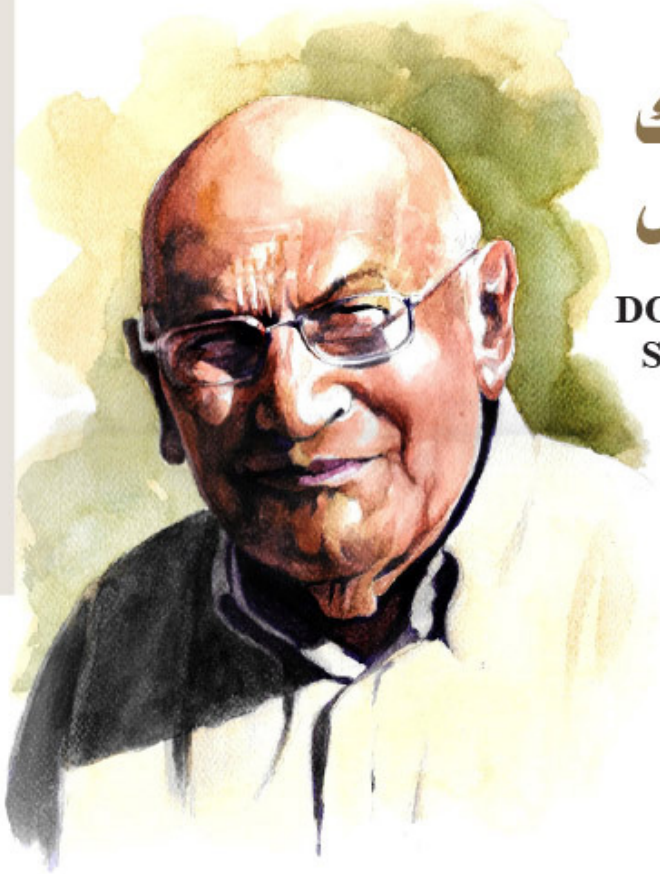

دومنيك سوردیل

DOMINIQUE SOURDEL

أيمن فؤاد سيّد

كتاب وكتاب 100

38

دومنيك سورديل

DOMINIQUE SOURDEL

الكتاب : **دومنيك سورديل**
المؤلف : **أيمن فؤاد سيّد**
الطبعة : الأولى 2022
عدد الصفحات : 120
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2022MO0000
الترقيم الدولي : 978-0000-000-00-0

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

دومنيك سورديل
DOMINIQUE SOURDEL

أيمن فؤاد سيّد

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـــة 7

تَمْهِـــيد 9

مَدخَـــــل 27

حَيَـاتُه ومُؤَلَّفَاتُه 31

الوَزَارَة العَبَّاسِيَّة 49

الإسلام في العصور الوسطى 59

حَضَارَةُ الإسْلام الكِلاسِيكِي 61

مقالاتُه في دائرة الـمعارف الإسلامية 67

دومينك سورديل مُحَقِّقًا 71

مُقْتَطَفَاتٌ من كِتَابَاتِه 73

قيل عَنْه 91

Bibliographie de Dominique et Janine Sourdel 95

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تماماً أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشيناً لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

تَمْهِـيد

ترجع البداياتُ الاولى للاستشراق إلى فترة الحروب الصَّلِيبِيَّة عندما بدأ الغرب الـمسيحي في التعرف على حضارة الإسلام، حيث بدأت بعض الـمخطوطات العربية تعرف طريقها إلى الـمكتبات الـملكية في فرنسا بوجه خاص. أما الاستشراق الرسمي فقد بدأ مع صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلاماتكا.

و"الاسْتِشْرَاقُ" ميدانٌ واسعٌ من ميادين الدراسة قائم على وحدة جغرافية وثقافيه ولغوية وعرقية هي: "الشرق". كان الـمستشرقون بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن عشر باحثين في التوراة أو دارسين للغات السامية أو متخصصين في دراسة الإسلام أو الدراسات الصينية، ولكن مع منتصف القرن التاسع عشر اتَّسَعَ مجالُ الاستشراق ليشمل كل ما له علاقة بدراسة الشرق الـممتد من الشرق

الأدنى وحتى اليابان، لذلـك كان مستشرق القرن التاسع عشر إما باحثًا مختصـًا بالـدراسات الصينية أو الإسلامية أو بالدراسات الهندوأوروبيـه، وتشمـل هـذه الدراسات دراسة اللغات العربية والهيروغليفية والفارسية والتركية والصينية والجاوية ولغة ما بين النهرين وعددٍ لا يحصى من لهجات الهند، وشملت هذه الدراسات كل شيء من تحقيق النصوص وترجمتها إلى علـم النقود وعلـم الآثار وعلـم الاجتماع والتاريخ والأدب والدراسات الأثرية والفيلولوجيه والثقافية في كل حضارة أسيوية أو شرق أوسطيه أو شمال أفريقية معروفة قديمها وحديثها.

ويهمنا هنا ما يتعلق باهتمام الـمستشرقين بالدراسات الإسلامية Islamologues والعربية Arabisants. فمع ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الـميلادي وبداية حركة الفُتُوحَات أخذت أوروبا تشعر بالخوف حيث تنامت سيطرة الإسلام العسكرية ثم الثقافية والدينية تناميا هائلا وسقطت فارس والشام ومصر أولا ثم تركيا ثم شمال أفريقيا في أيدي الجيوش الإسلامية، وفي القرنين الثامن والتاسع للـميلاد فُتِحَت أسبانيا وصقلية وأجزاء من جنوب فرنسا.

ومع مجيء القرنين الثالث عشر والرابع عشر كان الإسلام قد انتشر شرقا حتى الهند وإندونيسيا والصين. وفي مواجهة هذا الاجتياح لـم يكن أمام أوروبا سوي الخوف والشعور بالرهبة. ولـم يكن لدي المؤلفين المسيحيين الذين عاصروا الفتوحات الإسلامية الكبرى غير اهتمام ضئيل بعلـم الـمسلـمين وثقافتهم العالية. وكان هؤلاء المسلـمون كما وصفهم جيبون Gibbon "معاصرين لأكثر الأحداث الأوروبية ظلاما وخمولا".

هكذا أصبح الإسلام بالنسبة لأوروبا رمزا للرعب ويمثل لها ذكريات مأساوية دائمة. ومع ظهور الأتراك العثمانيين وسقوط القسطنطينية سنة 1453م أصبح الإسلام مُمَثَّلًا في العثمانيين بنظر الأوروبيين خطرًا متربصا بأوروبا ويمثل للحضارة الـمسيحية تهديدًا دائمًا.

ومع بدايات النهضة الأوروبية وتوجيه أوروبا نظرها إلى العالم القديم ومحاولة سيطرتها على الطرق الـمؤدية الى الهند والشرق الأقصى. كان الإسلام هو دين غالبية سكان هذه المنطقة، فأخذ الغرب المسيحي في التعرف على خصائص هذا الجزء من العالـم بدراسة دينه ولغته وحضارته. ولكن

الاستشراق بدأ بمفهوم خاطئ لطبيعة الإسلام عندما قارنه بالمسيحية، فكما كان الـمسيح هو أساس العقيدة الـمسيحية فإنهم افترضوا بطريقه خاطئة تمامًا أن النبي محمد ﷺ، يمثل للإسلام ما يمثله المسيح عليه السلام للمسيحية، ومن ثم أطلقوا لفترة غير قصيرة تسمية "المحَمَّدِيَّة" علي الإسلام، بل إن منهم من استخدم مصطلح "الهرطقة التي نسميها نحن بالمحمدية".

وكانت حمله نابليون على مصر عند منقلب القرن الثامن عشر (1789–1801) وتأسيس الـمجمع العلـمي الـمصري L'Institut de l'Egypte. هي أول محاولة حقيقية لتقريب الشرق من أوروبا وأصبحت النمط الذي تمثله جميع الجهود التالية. فقد تبنى نابليون تأسيس نوع من الأرشيف الحيّ لحملته في صورة دراسات حول كل الـموضوعات الـممكنة قام بها أعضاء الـمجمع العلـمي الـمصري، وقصد من وراء ذلك امتصاص الإسلام وتخفيف عدائه لأوروبا الـمسيحية.

وكـان مـن النتائج الطبيعية لهذا التحوُّل في القرن التاسع عشر ومطلـع القرن العشرين، أن وُجِدَت علاقة وثيقة بين السياسـة والاستشراق، أو استخدام الأفكار الـمستفيضة عن الشرق لدى الاستشراق لأغراض سياسية

أدَّت في نهاية القرن التاسع عشر إلى احتلال أوروبا لجزء كبير من الأراضي العربية والإسلامية.

وإذا تجاوزنا السلبيات والـمآخذ التي يمكن أن تؤخذ على الاستشراق فإن من أهم إيجابياته:

1- جمع المخطوطات الشرقية وفهرستها:

يرجع تأريخ تكوين مجموعات الـمخطوطات الشرقية عمومًا والـمخطوطات العربية خصوصًا في أوروبا إلى فترة الحروب الصليبية. وترجع البداية الحقيقية لإنشاء مجموعات الـمخطوطات الشرقية (العربية والفارسية والتركية) في أوروبا إلى القرن السادس عشر الـميلادي عندما بدأ اتصال فرنسا بالـمخطوطات العربية، غير أنها لـم تتعدَّ هذه الـمدة أصابع اليدين ثم أخذت هذه الـمجموعة في الحقبة التي عين فيها كولبير Colbert الوزير الأول لفرنسا الذي أرسل وكلاء جلبوا من إستانبول والقاهرة ودمشق وعواصم شرقية أخرى 630 مخطوطـــة ضُمَّت إلـى مكتبه الـملك بن سنتي 1671 و1675، وصـدر أول فهرس لهذه الـمجموعة في سنة 1677. وفي سنه 1732 أضيفت إلى المكتبة مجموعة كولبير الشخصية

وتشتمل على 188 مخطوطة فأصبح إجمالي عدد المخطوطات 1683 مخطوطة كما شهدت نهايـة مدة حكم لويس الرابع عشر اقتناء المكتبة المجموعة الغنية التي كونها ملشيسيديش تيفينو Melchisedech Thevenot (1620– 1692) التي اشتملت على نحو 125 مخطوطة عربية تم شراؤها في عام 1712.

وفي الـمدة التي قضاها نابليون في مصر (1798– 1801) جمع الفرنسيون 320 مخطوطة عربية أضيفت إلى رصيد الـمكتبة الوطنية في باريس. ثم شهد القسم العربي بالـمكتبة الوطنية الفرنسية في عام 1833 أكبر إضافة إلى الكتب العربية في تاريخه عندما اقتنت الـمكتبة 1515 مخطوطة جمعها jean-Louis Asslin de Cheville قنصل فرنسا في مصر في فترة إقامته هناك. ثم ازدادت مقتنيات المكتبة الوطنية من المخطوطات العربية في القرن التاسع عشر من إستانبول والقاهرة ودمشق وشمال أفريقيا، لعل أهمها مجموعه الـمستشرق شارل شيفر التي تشتمل على أكثر من 700 مخطوطة فيها 406 مخطوطة عربية وغيرها من المجموعات المهمة حتـى بلغ رصيد المكتبة الوطنية الفرنسية من المخطوطات العربية الآن 7200 مخطوطة.

ومن أهم مجموعات الـمخطوطات العربية في أوروبا الـمجموعة التي تحتفظ بها مكتبة دير الإسكوريال في مدريد، التي أقامها ملك أسبانيا فيليب الثاني في ضواحي مدريد عام 1576 وجزء كبير من الـمخطوطات العربية بهذه الـمكتبة يمثل ما ضمه إليها مؤسسها الـملك فيليب الثاني مما تبقى من كتب عربية في الـمدن الإسلامية الأندلسية كغرناطة وقرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسيه وغيرها، بالإضافة إلى "خزانة مولاي زيدان السَّعْدِي" ملك مرَّاكش التي اختطفها القراصنة في عرض البحر وأهدوها إلى ملك اسبانيا فيليب الثالث فضمها إلى مكتبة الدير سنه 1612 وكانت تضم نحو خمسة آلاف مخطوط عربي.

وجمع الألـمان طوال قرون العديد من الـمخطوطات الشرقية والعربية وأودعوها في مكتبة الدولة ببرلين التي تتكون من عِدَّة مجموعات أهمها مجموعة إدوارد جلازر Glazer وتبلغ هذه الـمجموعة نحو 14000 مخطوط.

وتتركز أهم مجموعات الـمخطوطات العربية في المملكة الـمتحدة في الـمكتبة البريطانية (الـمتحف البريطاني سابقًا) ومكتبه البودليانا بأسكفورد ومكتبة جامعة كمبردج.

ويرجع تاريخ تكوين مجموعه الـمكتبة البريطانية إلى عام 1753 وتشتمل اليوم على 10600 مخطوط عربي تكون القسم الأكبر منها خلال القرن التاسع عشر.

وتوجد أهم مجموعات الـمخطوطات العربية في إيطاليا في مكتبة الفاتيكان في روما ومكتبة الأمبروزيانا في ميلانو جُمِعَ أكثرها من اليمن. كما أن من أهم الـمكتبات الغنية بالمخطوطات النفيسة في أوروبا مكتبه شيستر بيتي الموجودة الآن في دبلن بإيرلندة وتشتمل على 3510 مخطوطة شرقية منهـا 2896 مخطوطة عربية بالإضافة إلى 244 مصحفًا نادرا فيها الـمصحف الوحيد الذي وصل إلينا بخط الخطاط الشهير علي بن هلال بن البَوَّاب.

وقَدَّمَ الـمستشرقون خدمةً مُهِمَّةً بوضعهم فهارس وَصْفِيَّة وتحليلية لهذه الـمجموعات الكبيرة والـمتنوعة من الـمخطوطات الشرقية، يمكننا من خلالها الوقوف على أهم كتب التراث العربي التي وصلت إلينا مما ساعد علي عمل تصنيف تاريخي دقيق للتراث العربي ومهد الطريق بعد ذلك لكتابة تاريخ الأدب العربي أنجزه الـمستشرق الألـماني كارل بروكلمان Carl Brockelmaumn باسم "تاريخ الأدب

العربي" GAL والـذي ظهــرت طبعتـه الأولى في جزئين بين عامي 1898 و1901، ثم ظهرت طبعته الثانية في خمسة مجلدات بين عامي 1937 و 1943 وهو تاريخ للأدب العربي من خلال ذكر الـمؤلفين وأهم مؤلفاتهم وأماكن وجود مخطوطاتها في مكتبات العالـم وما نشر منها.

2 - نشر التراث:

تركز الجهد الأكبر للاستشراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في نقد النصوص العربية القديمة ونشرها عبر الـمجموعات الغنية من الـمخطوطات العربية التي ذخرت بها مكتبات ومتاحف أوروبا الـمختلفة. فقد بدأ علـم نقد النصوص القديمة ونشرها في أوروبا منذ القرن الخامس عشر الـميلادي عندما اهتم الأوروبيون بإحياء الآداب اليونانية واللاتينية وخاصة بعد اختراع الطباعة. فكانوا يجمعون النسخ الـمتعددة للكتاب ويقابلون بينها، وكلـما اختلفت النسخ في موضع من الـمواضع اختاروا إحدى الروايات الـمختلفة ووضعوها في نص الكتاب وقيدوا ما بقي من الروايات في الهوامش. وقد استخدم الـمستشرقون بعد ذلك

هذه الأصول والقواعد في نقد الكتب العربية والشرقية.

وكان من أوائل الكتب التي اعتنى بها الـمستشرقون بإخراجها كتاب "القانون في الطب" لابن سينا طبع في روما عام 1593. ثم أخذت النصوص العربية تتوالى في الظهور وخاصة المصادر الأساسية مثل "نزهة الـمشتاق" للإدريسي و"الـمختصر في أخبار البشر" لأبي الفدا.

ومع تأسيس دار نشر بريل في لندن عام 1812- التي تخصصت في نشر التراث الشرقي- أخذت النصوص العربية الأصلية تجد طريقها إلى النور وخاصة علي يد محققين من أمثـال فرديناند ويستنفلـد F. Wustinfield وشارل ليال Ch. Lyal ودي خويه De Goege وغيرهم الذين أخرجوا نصوصًا مثل: "معجم البلدان" لياقوت الحموي و"تاريخ الدول والـملوك" للطبري، و"الـمكتبة الجغرافية" التي تضم أعمال ابن خُرَّدَاذَبَة والإصْطَخْرِي وابن الفَقِيه وابن رُسْتَه وابن حَوْقَل والـمقدسي، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد، ودواوين الشعراء الجاهليين، و"الـمفضليات" و"نقائض جرير والفرزدق" و"فهرست" النديم، و"كشف الظنون" لحاجي خليفة وغيرها.

ومـع تأسيس مجموعـة جـب التذكارية GMS وجمعية الـمستشرقين الألـمان DMG وضعـت خطة لنشر أهم كتب التراث العربي علي منهج علـمي بعد جَمْع نُسَخِها الـمختلفة والتقديم لها بمُقَدِّمَة علـمية تتناول أهمية الكتاب وموضوعه ومصادره ونقول المتأخرين عنه وقيمته بين مؤلفات موضوعه ووصف لنُسَخِه الـمختلفة والـمنهج الـمتبع في إخراج الكتاب إضافة إلى كشافات تحليلية مفصلة لكل كتاب.

وساهم في عملية نشر التراث العربي كذلك معاهد الاستشراق الـمنتشرة في بلدان عربية كثيرة مثل الـمعهد العلـمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة والـمعهد الفرنسي للـدراسات العربيـة بدمشـق والـمعهد الألـماني للأبحاث الشرقية ببيروت.

3 - الدراسات والأبحاث:

كان طبيعيـًا أن يقـوم الـمستشرقون بعمل دراسات وأبحاث متخصصة عن مختلف جوانب التاريخ الإسلامي وحضارته اعتمادًا على النصوص العربية الـمنشورة. وتنوعت هذه الدراسات في جميع فنون الـمعرفة الإسلامية (علوم

القرآن، التفسير، الحديث، الفقه، التصوف، علـم الكلام، التاريخ، الجغرافيا، اللغة، النحو، الأدب، الطب، الرياضيات، الفلك، العلوم الإسلامية...إلخ) وقدموا لنا دراسات كلاسيكية في كل هذه المجالات مازالت جميعها تحتفظ حتى الان بقيمتها.

4 - الـمجلات الاستشراقية:

ولنشر هذه الأبحاث التي أعدها الـمستشرقون أَسَّسُوا العديد من المجلات الـمتخصصة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا وإيطاليا والولايات الـمتحدة وروسيا. من أقدمها الـمجلة الأسيوية *Journal Asiatique* في فرنسا ومجلة الجمعية الـملكية الأسيوية بإنجلترا *JRAS* بالإضافة إلى مجلة *ZDMG* و *Der Islam* اللتين تصدران في ألـمانيا.

وفـي العقود الأخيرة بدأت مجلات متخصصة أخرى في الصدور مثل مجلة أرا بيكا *Arabica* في فرنسا، ومجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق *JESHIO* التي تصدر عـن دار نشـر بريل، ومجلة *Oriens* في ألـمانيا ومجلة الدراسـات الإسلاميـة *Studia Islamica* التي تصدر في

باريس، ومجلة مقرنص *Muqarnas* التي تُعنى بدراسة تاريخ الفنون والعمارة الإسلامية. وتُصْدر كذلك الأقسام الشرقية بالجامعات الأوربية مجلات متخصصة أهمها مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن *BSOAS*، وكذلك الجمعيات المتخصصة مثل الجمعية الأمريكية الشرقية *JAOS* وقام المستشرق الإنجليزي بيرسون Pearson بعمل كشاف موضوعي للمقالات التي صدرت في جميع هذه المجلات الاستشراقية اعتبارًا من عام 1905 بعنوان "الفهرس الإسلامي *Index Jslamicus*" صدر منه حتى الآن سبعة مجلدات.

5- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي:

ومن الإنجازات المهمة للاستشراق "عمل المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي بدأه المستشرق الهولندي فنسنك اعتمادًا على كتب الصِّحَاح الستة ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وهو عمل لا غنى عنه لأي مشتغل بالعلوم الإسلامية.

6 - دائرة الـمعارف الإسلامية Encyclopedie de l'Islam

لعــل أهــم إنجــازات الاستشراق هو إصدار "دائرة الـمعارف الإسلامية" التــي شــارك في تحريرها على امتداد تسعين عامًا كبار الـمستشرقين. وهي عمل رائع لا يقدر بثمن، مرتب على حروف الهجاء اللاتينيــة، يشتمل على مداخل لجميع موضوعات الحضارة الإسلامية، مُذَيَّلَة بقائمة ببليوجرافية لأهم الـمصادر والـمراجع والدراسات ذات الصلة بموضوع الـمقال.

صدرت الطبعة الأولى لدائرة الـمعارف الإسلامية في ليدن في الفترة بين سنتي 1913- 1942 في أربعه مجلدات وملحق. ومن الطبيعي أن تتفاوت مقالات هذه الـموسوعة في قيمتها، وقد كان نشوب الحرب العالـمية الأولى سببًا في إنجاز الـمشروع طبقًا لخطة أوسع من تلك التي كانت في التصور الـمبدئي. ويمكن القول بصفة عامة أن مقالات الـمجلد الأول التي تتناول الأحرف من A إلى D ليست قديمة فحسب بل سطحية أيضًا.

أما الـمجلدات الثلاثة التالية والـملحق فقد حاول محررو مقالاتها أن يقدموا خلاصة دقيقة للـمعلومات

الـمتوافرة عن الـمادة بالإضافة إلى قائمة ببليوجرافية بأهم ما كتب في الـموضوع. وبعض الـمقالات تعد بحق أمثلة جَيِّدَة للـمعالجة العلـميـة الرفيعـة التي لا تضاهى. ونشرت الطبعة الأولى للدائرة بالإنجليزية والفرنسية والألـمانية في وقت واحد.

ونظرًا لتطور الـمعلومات وتقدم الدراسات العربية والإسلامية فقـد بـدئ عـام 1954 في إصدار طبعة ثانية لدائرة الـمعارف الإسلامية تصـدر في لغتين: الإنجليزية والفرنسية بإشـراف كريمرز (وخلفه شاخت ثم فان دونزل) وجب (وحـل محله برنارد لويس وبوزورث) وليفي بروفنسال (وخلفـه شارل بللا ثم تياري بيانكي). وصدرت في أحد عشر مجلَّدًا سنة 2004 م، وملحق تشتمل على الحروف من A إلـى T.

وتحتل "دائرة الـمعارف الإسلامية" مكان الصدارة بين أعمال الـمستشرقين باعتبارها مرجعًا يتفوق على كل ما عداه، ولكنها رغم ذلك لا يمكنها أن تلبـي كل حاجات الباحثين مما يتطلب إعداد كثير من الـمراجـع الأساسية التي يتطلب إعدادها بعض الوقت.

7 - مؤتمرات الـمستشرقين:

بدأ الـمستشرقون في عقد مؤتمرات متخصصة لتدارس تاريـخ الشـرق وحضارته منذ عام 1873، حيث عقد أول مؤتمر للـمستشرقين في باريس في هذه السنة. وتنقسم محاور هـذه المؤتمـرات إلـى أربعـه عشر قسمًا عن آسيا وإفريقيا بينهـا أربعـة محـاور عـن الدراسات العربية والإسلامية، يحضرها الآلاف من أعـلام المستشرقين والعلماء العرب والمسلـمين والشرقيين.

وتعقد هذه الـمؤتمرات بغير انتظام، أحيانًا كل ثلاث سنوات أو سنتين أو أربع سنوات. ويشـرف على تنظيم كل مؤتمـر لجنـة من علـمـاء الدولـة التي يعقد فيها لبحث جدول أعمالـه وتحديـد موعد انعقـاده ومدتـه. وحالت الحربـان العالميتـان دون انعقاد المؤتمرين رقمي 17 و21 في موعديهما.

وبمناسبـة مـرور مئـة عـام على انعقاد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس، استضافـت بـاريس أيضًا المؤتمر التاسع والعشرين في الـمدة ما بين 16-21 يوليو سنة 1973.

وتصدر عن هذه الـمؤتمرات مجلدات تحوي البحوث والـدراســات المقدمــة إلـى جلســات هذه المؤتمرات، وهي تمثل آخر ما توصل إليه العلماء في مجالات دراستهم المختلفة.

مَدخَــل

رغم أن هناك بداياتٍ للاستشراق الفرنسي تعود إلى عهد الـملك لويس الرابع عشر Louis XIV من خلال أكاديمية النقوش والآداب Académie des Inscriptions et Belles-Lettres التي أسَّسَها الوزير الشهير جون بابتيست كولبير Jean-Baptiste Colbert (1619 –1683) فـي بـــاريس سنة 1663م، فإن أنطوان إيـزاك سلفستر دي ساسـي Antoine Isaac Silvestre de Sacy (1758 –1838م) يُعَدُّ أبا الاستشراق الفرنسي الذي بدأ حياته في مجال الاستشراق مُعَلـما للُّغَة العربية في مدرسة اللُّغَات الشَّرْقِيَّـة الحَيَّـة Ecole des langues orientales vivantes التي أصبح مديرًا لها سنة 1824م، كما رُشِّحَ سنة 1806م لـمنصب الأستاذية في الكوليج دي فرانس Collège de France وكان كذلك أول رئيس للجمعية الآسيوية Société Asiatique .

ومـــن خـــلال حياته العملية في دار الضَّرْب الفرنسية – التي أمضى فيها السنوات الأولى من حياته العملية – تَنَبَّـــه إلـــى أهمية كتاب "شُذُور العُقُود في ذِكْرِ النُّقُود" للـمقْرِيزِي وقدم له نشرةً مفيدة، إضافة إلى مؤلفاته في النحو العربي واهتمامه بـ"رسائل الدُّرُوز" وغيرها من الأعمال الـمهمة.

ونقل دي ساسي اهتمامه بالـمقَرِيزِي إلى أحد تلاميذه هو المستشرق إتيان مارك كاترمير Étienne Marc Quatremère (1782–1843م) الذي اهْتَمَّ بأحد مؤلَّفات الـمقريزي التاريخية هو كتاب "السُّلُوك لـمعْرِفَة دُوَلِ الـملُوك" وقَدَّمَ ترجمة ونشرة لـــ "مُـقَدِّمَة" ابن خَلْدُون.

ومـــع إنشـــاء الـمعهد العلـمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO سنة 1881م ازداد اهتمام الفرنسيين بدراسة تاريخ مصر عبر العصور استكمالًا لـما بدأه الـمجمع العلـمي الـمصري Institut d'Égypte وما أنتجته الحملة الفرنسية على مصر في كتاب "وَصْف مِصْر *La Description de l'Égypte*"؛ حيث اهتم في مجال الدراسات العربية بإنجاز العديد من الدراسات عن تاريخ عواصمها في العصر الإسلامي بدءً من

الفُسْطَاط مرورًا بالعَسْكَر والقَطَائِع والقَاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل اعتمادًا على النصوص التاريخية والحفائر الأثرية، قام بها كُلٌّ من بول رافيس P. Ravaisse وبول كازانوفا P. Casanova وجورج سالمون G. Salmon واستكملها جاستون فييت Gaston Wiet الذي أعَدَّ نشرةً نقديةً لم تكتمل لكتاب "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" للمقريزي إضافة إلى استكماله العمل المهم الذي بدأه ماكس فان برشم Max van Berchem عن "الكتابات والنقوش العربية" *CIA*، في الوقت نفسه الذي كان يدرس فيه جودفري دي مومبين Gaudefroy-De-mombynes "النُّظُم المملوكية" و"تاريخ سوريا في العصر المملوكي"، وكتب فيه جاك سوفاجيه Jacque Sauvaget رسالته المهمة عن "تاريخ مدينة حَلَب وتطورها من بدايتها إلى منتصف القرن التاسع عشر". وكتب أيضًا في هذه المدة ماريوس كانارMarius Canard (1888–1982م) دراسته عن "الأُسْرَة الحَمْدَانِيَّة في حَلَب" وعن "رُسُوم واحْتِفَالات الفَاطِمِيِّين في مِصْر"، وكلود كاهن Claude Cahen (1909– 1991م) دراسته الكلاسيكية عن "سوريا الشمالية في عصر الحروب الصَّليبية".

وينتمي دومينك سورديل إلى هذه الـمدرسة التي بدأها كانار وكاهن وشارْل بِلّا الذي اهتَمَّ بدراسة الجَاحِظ، كما أن جان سوفاجيه وليفي بروفنسال- الذي تخصص في دراسة تاريخ الأندلس- وهنري لاووست- الذي كتب أهم دراسة عن العقائد الاجتماعية والسياسية لابن تَيْمِيَّة- يُعَدُّوا أساتذته الـمباشرين الذين عُرِفَت بهم التقاليد الكبرى للاستشراق الفرنسي على الـمستوى الدولي.

حَيَاتُه ومُؤَلَّفَاتُه

وُلِدَ دومينيك سورديل Dominiq Sourdel في 31 يناير سنة 1921م في بون سان ماكسينس Pont – Sainte - Maxence، مدينة صغيرة في إقليم الواز l'Oise تتبع إداريًا إقليم فرنسا الشمالية حيث كان والده يعمل بها كاتبًا للعدل. وكان بعد أن ترك دراسته استقرَّ في باريس نحو أواسط سنة 1920م في العمارة رقم 7 بشارع أبِل rue Abel حيث أمضى دومينيك صباه. واجتاز دراسته الأولى مزاملًا جون ريتشارد، الذي أصبح بعد ذلك من كبار الـمتخصصين في دراسة الحروب الصليبية، واللذين لـم يفترقا طوال حياتهما. واستكمل دومنيك دراسته بعد ذلك في ليسيه هنري الرابع حيث زامل Jean Leclant الذي أصبح من كبار أساتذة الـمصريات بعد ذلك. وبعد حصوله على البكالوريا قام بأول رحلة إلى بلد عربي حيث زار الـمغرب وأقام عند عمه بروسبير ريشار مفتش التعليم.

وفي عام 1942م التحق بالمدرسة العليا. l'école normale superieure بشارع أولـم Ulm rue حيث درس الأدب الكلاسيكي. وقاده تكوينه في الدراسات الهللنستية بالطبع إلى التخصص في تاريخ العالـم القديم واختار مشرفًا على رسالته لويس روبير Louis Robert، أشهر الـمتخصصين في دراسة النقوش اليونانية الذي كان يدرِّس حينئـذ في الـمدرسة التطبيقية للـــدراسات العليا l'école pratique des hautes études، حيث حصل في سنة 1947م تحت إشرافـــه على رسالته الأولـى وموضوعها "عبادات حورَان في العصر الروماني"*Les cultes de Hauran à l'époque romaine*. وفي الوقت نفســه الــذي كان يُعِدُّ فيه هذه الرسالة بدأ سنة 1944م في دراسة اللغة العربية، أولًا في مدرسة اللغات الشرقية École des langues orientales حيث حصــل منها علـى دبلوم التخصص سنة 1946 ثم في جامعة السُّورْبُون Université de la Sorbonne حيث حصل على شهادة التَّخَصُّص سنة 1947، وكان من بين أساتذته في هذه الأثناء البروفيسور إيفاريست ليفي بروفنسال E. Lévi Provencal الذي ظل مرتبطًا به حتى وفاته سنة 1956. وقد أتاحت له

هذه الصلة توفير مِنَحٍ استفاد منها في دراسة اللغات والسفر مرة أخرى إلى الـمغرب سنة 1964 ومنها إلى تونس.

واعتبارًا من عام 1945 بدأ دومينيك سورديل في الانتظام في حضور محاضرات جان سوفاجيه في الـمدرسة التطبيقية للدراسات العليا l'école pratique des hautes études والتي تعد مرحلة فاصلة في حياته الشخصية ومساره المهني، حيث تعرَّف من خلالها بين الحضور على جانين تومين Janine Thomine الطالبة بمدرسة اللوفر L'école du Louvre والتي بدأت قبل عامين في دراسة اللغة العربية، فارتبط بها في 20 نوفمبر سنة 1946 وتزوجها في 10 يناير سنة 1947 .

هكذا وَجَّه جاك سوفاجيه دراسة دومينيك سورديل نحو اللغة العربية التي تَكَوَّنَ فيها تكوينًا جيدًا يَسَّرَ له دراسة تاريخ العالـم الإسلامي الوسيط، واقترح عليه سوفاجيه موضوعًا لأطروحته التكميلية للدكتوراة إعداد نشرة نقدية لــ "وَصْف حَلَب" من كتاب "الأعْلَاق الخَطِيرَة في ذِكْرِ أُمَرَاءِ الشَّام والجَزِيرَة" لعِزِّ الدِّين ابن شَدَّاد سنة 1953م. وكان من نتيجة هذا التوجه الجديد لأعمال دومينيك سورديل أن نشر كتابًا عن "الإسلام" في سلسة Que sais- je ? تُرْجِمَ بعد ذلك إلى

عَشْر لُغَات وأعيد نشر نسخته الفرنسية اثنتين وعشرين مرة.

وبدأ التدرج الـمهني لدومينيك سورديل منذ سنة 1944 حيث التحق متدربًا بالـمركز الوطني للأبحاث العلـمية CNRS ثـم باحـثًا مشـاركًا، إلَّا أنـه استقال منه سنة 1948 بعد أن عُرِضَ عليه أن يكون باحثًا مقيمًا بالـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق IFEAD، إلَّا أنه لـم يلبث أن تركه في العام التالي. واستطاع بفضل معاونة هنري تيراسHenri Terrasse أن يحصل في مطلع عام 1949 على منصب باحث مقيم بمعهد الدراسات العربية الـمغربي في الرباط قبل أن يعود مرةً ثانيةً إلى منصبه باحثًا مشاركًا بالـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق في أبريل سنة 1949 .

هكذا استمر دومينيك سورديل بصُحْبَة زوجته جانين مرتبطين بمعهـد دمشق خمس سنوات (1949–1954)، في الوقت الـــذي كـــان يترأس فيه الـمعهد البروفيسور هنري لاووست Henri Laoust الذي ترك له حرية السفر والتنقل في مدن الشَّرْق. فبدأ في النصف الثاني من عام 1949 بزيارة تركيا والعراق، ثم أقام في أفغانستان من سبتمبر سنة 1950

حتى مطلع عام 1951 حيث زار في طريق عودته الهند. وتتابعت رحلاته في السنوات التالية حيث أتيح له زيارة الموصل والجزيرة وبيت المقدس وفلسطين ولبنان وقبرص. وبمناسبة إجازة صَيْف عام 1951 عَبَرَ بسيارته الأراضي التركية وأوروبا عائدًا إلى باريس لقضاء العطلة. وبذلك فإنه لـم يقيم إقامة مطوَّلة في دمشق إلَّا في العام الأخير من بَعْثَتِه (1953–1954) باحثًا مقيمًا ووَجَّه اهتمامه إلى العناية بتاريخ هذه الـمدينة العريقة. وأتاحت له هذه زيارة الـمدن الشرقية أن يجمع وَثَائِق وصُوَرًا عالية الجودة لآثار ونقوش الـمدُن التي زارها، وعلى الأخص لـمدينة دِمَشْق، حيث كُلِّفَ هو وزوجته بإعادة النظر في "جامع الكتابات العربية" *CIA* الذي أعاد إحياءه أستاذه جاك سوفاجيه وعُهِدَ إليه مع زوجته جانين الاستمرار في إعداده بعد الوفاة الـمفاجئة لسوفاجيه سنة 1950.

وعاد دومينيك سورديل إلى فرنسا في يونية سنة 1954 حيث التحق مرة أخرى بالـ ـCNRS باحثًا مشاركًا ثم باحثًا. وتُسَجِّلُ هذه الـمرحلة نقطة تحول جديدة في مسيرة دومنيك سورديل العلـميـة حيـث قَرَّرَ، بُنَاءً على ما كـان اقترحـه عليه أستاذه جان سوفاجيه، إعداد رسالته الرئيسة

لدرجة دكتوراة الدَّوْلَة في موضوع "الوَزَارَة العَبَّاسِيَّة 132- 324/ 749-936م" بدلًا من دراسة "سِيرَة الأَتَابِك عِمَاد الدِّين زَنْكِي".

وَوَجَّهَ دومينك سورديل في هذه الدراسة المتفردة اهتمامًا كبيرًا بدراسة مؤسَّسات الخلافة وقت ازدهارها في العَصْرِ العَبَّاسِي الأَوَّل وإلى دراسة الجَدَل العقائدي الذي سَادَ الدَّوْلَة الإسلامية خلال هذا العصر. وناقش سورديل رسالته سنة 1958 ونشرها له في جزأين المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق في سنتي 1959 و1960. ولم يتوقف بعد ذلك عن دراسة العصر العباسي الأول حيث كتب أغلب المواد المتعلِّقة به في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية *l'Encyclopédie de l'Islam* حتى آخر دراسة شاملة له ظهرت سنة 1999 بعُنْوَان "إمبراطورية الخلفاء العباسيين بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي".

وانخرط دومينك سورديل في السلك الجامعي ابتداءً من سنة 1960 حيث تولَّى تدريس تاريخ الشرق الإسلامي وحضارته بكلية الآداب بجامعة الجزائر في الكرسي الذي كان يشغله ماريوس كانار Mariuce Canard. وبعد استقلال الجزائر

سنة 1962 انتقلت الكراسيّ الـمخصَّصة لجامعة الجزائر إلى الأراضي الفرنسية حيث أُلْحِقَت الكراسيّ الخاصة بهادي روجيـه إدريس Hady Roger Idris ودومينـك سورديـــل بجامعة بور دو، فأصبح سورديل محاضرًا ثم أستاذًا دون كرسيّ سنة 1961.

وشارك دومينك سورديل في عقد الستينيات في عديد مـن بعثـات التنقيب والتوثيق عن الـمدونات والنميات في أفغانستـان وعلـى الأخصّ في تركيا حيث اتخذت أبحاثه نتيجة لذلك توجهًا جديدًا.

وفي سنة 1963 دعا خان كرمتلي أمين متحف الفنون التركية والإسلامية بإستانبول السيدة جانين سورديل لزيارة مجموعات متحف إستانبول، في أعقاب محاضرة حضرها لها في باريس، ممَّا فَتَحَ أمامها الطريق للعمل على نشر كتاب "الإشَارَات إلى مَعْرِفَة الزِّيَارَات" للهَرَوِي.

ونتيجة لحفاوة استقبال لويس روبير Louis Robert مدير الـمعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية، صحب دومينك سورديل زوجته جانين أثناء رحلتها إلى إستانبول في سنة 1963 حيث

اكتشف هناك مجموعة "أوراق دمشق"، وهي جِنِيزَة حقيقية (Geniza) أُهْمِلَت منذ قرون في أحد قاعات الجامع الكبير بدِمَشْق قبل أن يُكْشَف عنها في أعقاب حريق وقع بالجامع سنة 1893م ونَقْلِها بعد ذلك إلى إستانبول في أخريات أيام الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة.

وعلى الفور أدرك دومينك وجانين الأهمية الكبرى لهذه الآلاف من الأوراق والوثائق التى ترجع إلى العصر الإسلامي، فقاما في العامين التاليين بالتعريف بها واستعراضها في دراسة أولية في مجلة الدراسات الإسلامية *Revue des études islamiques* وبدأ على الفور في القيام بسلسلة من البعثات العلـمية لجمع وتصوير ودراسة "أوراق دمشق" ولـم يتوقف الزوجان منذ هذا التأريخ عن دراسة هذه الـمجموعة ونشر الوثائق الـمهمة بها في جامع للوثائق "corpus". وللأسف لـم يلق هذا الاكتشاف الكبير، وقت نشره، الاهتمام الذي يستحقه في الأوساط العلـمية التي كانت قليلة الاهتمام حينئذ بهذا النوع من الوثائق الذي لـم يتحقق إلَّا بعد نصف قرن عندما أصبحت هذه الدراسات محل عناية بفضل الـمعلومات الغنية التي قدمتها إلى معارفنا العلـمية.

وانْتُخِبَ دومينك سورديل في سنة 1979 أستاذًا للتاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة باريس رقم 4 (السربون) في الكرسيّ الذي كان يشغله حتى هذا التأريخ هنري لاووست. وظل دومنيك سورديل يشغل هذا الكرسي حتى إحالته إلى التقاعد سنة 1991 حيث تولَّى الإشراف على قسم الدراسات العربية والإسلامية بالجامعة.

وتولَّى خلال هذه المدة الإشراف على عديد من رسائل الدكتوراة لطلبة وافدين من جميع أنحاء العالم العربي، إضافة إلى الطلبة الفرنسيين حيث كَوَّنَ جيلًا جديدًا من الباحثين الفرنسيين الذين شغلوا بعد ذلك كراسيّ الأستاذية للتاريخ الإسلامي في الجامعات الفرنسية مثل: آن ماري إدَّة Anne Marie Edde، وكريستوف بيكار Christophe Picard، وجون ميشيل موتون Jean Michel Mouton.

وتولَّى دومينك سورديل ما بين سنتي 1980 و1990 – في أعقاب وفاة هنري لاووست – رئاسة تحرير مجلة الدراسات الإسلامية *Revue des études islamiques*، كما خلفه كذلك في الإشراف على فريق البحث بجامعة باريس رقم 4 والمركز الوطني للأبحاث العلمية CNRS كما

نَظَّمَ مع جانين سورديل سلسلةً من الـمؤتمرات الدولية المتخصصة.

وشهدت هذه الحقبة كذلك بداية إعداده هو وزوجته أحد أهم مؤلفاتهما *Le Dictionnaire Historique de I'slam* "الـمعجم التاريخي للإسلام" الذي نشر عام 2000 الأمر الذي ساعد الـمطابع الجامعية الفرنسية على إنشاء "مجموعة إسلاميـــة" تشتمـــل علـــى نحو خمسة عشر مقالًا مطولًا في سلسلة جديدة بعنوان Que sais – je? الجديدة عن "الـمفردات الإسلامية" *Le vocabulaire de l'Islam*.

وخَصَّصَ دومينك سورديل السنوات الأخيرة من حياته لنشر مجموعة "أوْرَاق دِمَشْق" التي كَرَّسَها دون هوادة لفَكِّ طلاسم هذه الوثائق وتصنيفها لإعداد جامع لهذه الكتابات. وفي أعقاب الانتهاء من نشر "إجَازَات الحَجّ" سنة 2006 بدأ في العمل في الأوراق الـمتعلقة بـــ "عقود الزواج والطلاق" التي نشرها سنة 2013 ثم في الوثائق الـمتصلة بـــ "النَّاصِر صـــلاح الـدِّين يُوسُف بن أيُّوب" التي صدرت بعد وفاته سنة 2015 قبـــل أن يبدأ في العمل في الـمجموعة الخاصة بـ"صُكُوك البَيْع" التي كان على وشك الانتهاء من تحريرها.

وتُوُفِّي دومنيك سورديل في الرابع من مارس سنة 2014 في الـمستشفى الأمريكي بنييي Neuilly شمال باريس عن عمر يناهز 93 عامًا.

أمَّا جانين تومين Janine Thomine طالبة مدرسة اللوفر L'école du Louvre التي ارتبط بها دُومِنِيك سُورْدِيل في 20 نوفمبر سنـــة 1946 وتزوجها في 10 يناير سنة 1947، مَدَّ الله في عُمْرِها، والتي شَارَكَتْه في إنجَاز القِسْم الأكبر من إنتاجه العلـمي تحت اسم Janine - Sourdel Thomine، فقد وُلِـدَت في باريس في 15 نوفمبر سنة 1925 وتلقَّت تعليمها الأوَّل في ليسيـه كميل سي Lycé Camille - Sée في باريس، ثم التحقت بمدرسة اللوفر والتي تعرَّفت من خلالها على زوجها دومينيك. وعملت باحثة في الـ CNRS في الفترة من 1950 – 1960 وحصلت خلالها على درجة دكتوراة الدولة عن تحقيق وترجمة كتاب "الإشَارَات إلى مَعْرِفَة الزِّيَارَات" لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهَرَوِي، المتوفَّى سنة 611هـ/ 1215م، (نشره لها الـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق مع ترجـمة فرنسيـة بعنـــوان *Guide des lieux de Pelerinage* (1955–1957)، ثم أصبحت مديرة بحوث في تخصُّص النُّقوش

وتاريخ الكتابة العربية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بين سنتي 1960 – 1970 وتخصَّصت بعد ذلك في تاريخ الفَنّ والآثار الإسلامية مما مكَّنها من شغل وظيفة أستاذ تاريخ الفن الإسلامي بجامعة باريس 4 – السُّرْبُون حتى تولَّت منصب نائب رئيس الجامعة في الـمدة ما بين 1980 – 1995.

الإنْتَاجُ العِلـمي

بدأ دومنيك سورديل إنتاجه العلـمي، الذي شاركته فيه زوجته فيما بعد، في سنة 1949 بكتابه "الإسلام" *L'Islam* الذي يحمل رقم 355 في سلسلة Que sais – je? وحَقَّقَ شُهــرَةً كبيرة ونُقِلَ إلى أكثر من عَشْرِ لُغات بينها العربية. وتَبِعَه بكتابه الذي أَلَّفَه قبل تحوُّله إلى الدراسات العربية والذي يحمل عنوان "عِبَادَات حَوْرَان في العصر الرُوماني" *Les cultes de Hauran à l'epoque romaine* سنة 1952، وأثناء إقامته بأفغانِسْتان أعَدَّ "قائِمَةً بالعُمْلات الإسلامية القديمة المحفوظــة بمتحف كابــول" *Inventaires des monnaies musulmanes anciennes du Musée de Caboul* نشره له

الـمعهـد الفرنسـي للدراسات العربية بدِمَشْق سنة 1953. ثم نشـر لـه الـمعهـد الفرنسـي فـي العام نفسه تحقيقه لـ "وصف حَلَب" في كتاب "الأعْلَاق الخَطِيرَة في ذِكْرِ أُمَرَاء الشَّام والجَزِيرَة" لابن شَدَّاد، وهو النَّصّ الـمحقَّق الوحيد لدومنيك سورديل.

أما أهم إنجازات سورديل فهي بلا شك رسالته الرئيسة التي تقدم بها لنيل دكتوراه الدولة من جامعة السربون في موضوع "الوَزَارَة العَبَّاسِيَّـة مـن 749 إلـى 936م (132 إلى 324هـ)" *Le vizirate abbaside de 749 à 936 (132 a 324 de l'Hégire)* التي نشرهـا لـه الـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق في جزأيـن بين سنتي 1959– 1960م التي تُعَدُّ دراسةً مُؤَسِّسَةً في الـموضوع فتحت الباب أمام باحثين مشارقة لتناول تطور نظام الوزارة في العصر العباسي في الحقبة التالية لذلك.

وتقديرًا لـمكانة أستاذه جون سوفاجيه الذي وَجَّهَه إلى الدراسات العربية والإسلامية، عمل كَشَّافًا تحليليًا لأعماله (بالتعاون مع زوجته جانين تومين) *Index analytique de*

l'oeuvre de Jean Sauvaget نشـــره الـمعـــد الفرنسي" في دمشـــق سنـــة 1961م. وبالتعـــاون مع زوجته كذلك قاما بتأليـــف كتـــاب مهم عن "حَضَارَة الإسْلام الكلاسيكي" *La civilization de l'Islam Classique* نُشـــرَ في باريس سنة 1968م (نقله إلى العربية حسني زينة وصدر في بيروت في جزأين سنة 1980 بعنوان "الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي")، ثم في نشرة مزيدة مزوَّدة بالخرائط والصور الـملونة (في سلسلة الحَضَارَات الكُبْرَى) في باريس سنة 1983م. وقام كذلك بكتابة دراسة شاملة بعنوان "تاريخ العـــرب" *Histoire des Arabes* تحمل الرقم 1627 في سلسلة ?Que sais – je سنة 1976، صدرت طبعتها العاشرة سنة 2018، نُقِلَت إلى عديد من اللغات بينها العربية. وفي سنة 1979 أصدر كتابه *L'Islam medièeval* (نقله إلى العربية علي المقلد بعنوان "الإسلام في القرون الوسطى"، بيروت 1983)، كمـــا أصـــدر في سنة 1999 دراسةً مهمةً بعنوان "الدَّوْلَة الإمبراطورية للخلافة العبَّاسية من القرن الثامن إلى القرن العاشر" *L'Etat imperial des califes abbasides VIII- X siècle*، إضافةً إلى كتاب "المعْجَم التَّاريخي للإسلام"

Dictionnaire historique de l'Islam فـي سنتـي 1996 و2004 (صـــدرت له ترجمة عربية في بيروت سنة 2009)، كما أصدر بالتعاون مع زوجتــه كتـاب "مُفْردات الإسلام" *Vocabulaire de l'Islam* سنـــة 2002 فـي سلسلـــة . Que sais – je?

وابتـداءً مـــن عـــام 2006 وَجَّـــه كُـــلَّ اهتمامـه إلـى نشر "أوْرَاق دِمَشْـق" التـي اكتشفهـا فـي إستانبول بالتعاون مع زوجته جانين سورديل تومين وتلـميذه جون ميشيل موتــون، وأصـدر منهـا "شهـادات الحـج من العصر الأيوبي – دراسة الإيديولوجية الإسلامية في زمن الحروب الصليبية" سنة 2006 *Certificats de pélerinages d'éoque Contribution a l'histoire de l'idéologie de ayyoubide. l'Islam au temps des Croisades*، و"وثائق الزواج والطلاق في دمشق فـــي العصور الوسطى، 62 وثيقـة غيـــر منشورة في الفترة بين سنتي 337هـ/ 948م و698هـ/ 1299م"، سنة 2013، *Mariage et séparation à Damas au Moyen age. Un corpus de 62 documents juridiques inedits entre 337/948 et 698/1299* و"حُـكْـــم وتحرُّر صلاح

الدِّين بمعطيات غير منشورة لسِتّ وثائق عربية"، سنة 2015، *Govergance et liberalités de Saladin d'après les données inédites de six documents arabes*.

أما مقالاته العلـمية، التي بلغت أكثر من سبعين مقالة، فقــد نَشَـرَ القسـم الأكبـر منهـا في ثلاث من الدوريات الاستشراقية الـمهمة هي: مجلة أرابيكا *Arabica* التي تصدر عن دار نشر بريل في ليدن، ومجلـة الدراسات الإسلامية *Revue des etudes islamiques* التي تصدر في باريس وتولَّى رئاسة تحريرها بين سنتي 1980 و 1990، ومجلة الدراسات الشرقية *Bulletin d'études orientales* التي يصدرها الـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، إضافة إلى 74 مدخلًا من الـمداخل الـمهمة في الطبعة الثانية لــ "دائرة المعارف الإسلامية" (deuxieme édition) *l'Encyclopédie de l'Islam* ، من بينها مَوَادّ: البَرَامِكَة – بيت الحكمة – القاهر بالله – إبراهيم بن الـمهدي – الفضل بت الربيع – الفضل بن بحيى البرمكي – الجهشياري – ابن الجراح – بختيشوع – القاهر بالله – ابن شَدَّاد – ابن مُقْلَة – القادر بالله – هلال بن الـمحَسِّن الصَّابي – جَعْبَر – حَماة – دير الزُّور – غَزَّة .

ونشرت جانين سورديل 42 مدخلًا في دائرة الـمعارف الإسلامية بينها موادّ: البَلْقَاء – البِقَاع – بَيْت لَحْم – بَيْسَان – ابن البَوَّاب – بانْيَاس – الدَّارُوم – الغَزْنَوِيُّون – عَمْوَاس – كاتِب – حَاجِب – الهَرَوِي الـموْصِلِي.

الوَزَارَة العَبَّاسِيَّة

(من 132–324هـ/ 936–749م)

Le Vizirat ‘Abbaside de 749/132 a 963/324

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه حتى صدوره لـم توجد أية دراسة شاملة تناولت موضوع الوزارة فى حقبة ازدهار الخلافة العباسية، قبل ظهور البُوَيْهِيين، ودراسة الذين تولَّوا الوزارة أنفسهم.

فقد جرت العادة في دراسة التاريخ العباسى إلى إفراد مساحة أوسع للخلفاء على حساب الوزراء، أو التركيز على بعض الظواهر الغريبة أو الأسطورية لدور الوزراء على حساب نشاطهم السياسى والإداري، وإهمال دراسة الحلقات الـمعقدة للإدارة والدواوين التي يشرف عليها الوزراء عندما يعملون على الوجه الأكمل.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ نظام الوزارة وتطوره حتى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الـميلادى وتاريخ

من تولّوا هذا الـمنصب فى سياق تاريخ الخلفاء وكذلك تاريخ الإدارة العباسية وعلاقتها بالوزارة.

ويتناول العمل في الـمجلد الأول تمهيدًا يشتمل على ببلوجرافيا منهجية سهلة التناول، ثم مقدمة تستعرض المصادر الأساسية التى بني عليها العمل وقيمة كل منها وأهميته للـموضوع وحجم الاستفادة منه.

وأعقب ذلك بمدخل تناول فيه مشكلة أصل الوزارة مستعرضًا الآراء الـمختلفة حوله وكلـمة "وزير" ومعانيها القديمة.

ويستعرض القسم الأول من الكتاب بدايات الوزارة من سنة 132–218هـ / 749–833م؛ أي: إلى نهاية حكم الخليفة عبدالله الـمأمون، بينما يستعرض القسم الثانى مشاكلات الوزارة من سنة 218–296هـ/ 833–908م، أي حتى بداية حكم الخليفة الـمقتدر بالله.

أما الـمجلد الثانى فيشتمل القسمين الثالث والرابع اللذين تناولا عصر الوزراء الكبار فى زمن الـمقتدر وخليفتيه الـمباشرين من 296–324هـ/ 908–936م وهو التأريخ الذي وضح فيه ظهور منصب "أمير الأُمَرَاء" كنهاية لنظام الوزارة

بمعنى الكلـمة مع توصيف متعمق لدور الخليفة ودور الوزير، مع الإشارة إلى طبيعة سير العمل في ديوان الوزير.

وختـــم الدراســـة بخاتمـــة في 25 صفحة تعقبها قائمة بأسماء الوزراء وأخرى بأسماء رؤساء الدواوين الكبرى، وجدول بأهم الأسر التى انتسب إليها الوزراء، وخريطة لبغداد ثم كشاف تحليلى للكتاب.

وتعد المقدمة التى استعرض فيها المؤلف أهم المصادر التى اعتمد عليها نموذجًا لهذا النوع من الدراسات. استعرض فيها الـمؤلفات التي تناولت تاريخ الوزراء وتاريخ الكُتـَّاب والموسوعات والمؤلفات الجغرافية وكتب التراجم والببليوجرافيا وكذلك الحوليات وكتب الأدب ودواوين الشعراء والكتب التي تناولت النظريات السياسية.

وتنـــاول الـمؤلف مشكلة أصل الوزارة مدخلًا إلى القسم الأول مـــن الدراسة مشيرًا إلى هذه الوظيفة التي لـم تكن طبيعتها قد حددت بعد. وحلَّل بعناية شديدة الفروض الـمختلفة التي نمت حول هذا الـموضوع، خاصة وأن الكلـمة قد وردت فى القرآن بمعنى الداعم والـمساعد والـمستشار. ويظهر كيف أن وظيفة الكاتب الـموروثة عن

العصر الأموي قـد تطـورت لتصبـح معادلـة لوظيفة البُـزُرْج/ الرَّاماَدَار الساسانية من غير إمكان أن تكون هـذه الـمؤسسة أصْلاً لوظيفة الوزارة.

ويحدد المؤلف في القسم الأول دور أبى سَلـمة الخَلَّال "وزير آل محمد" والداعية الذي مهد لدخوله في الـمشهد، والذي لـم يكن وزيرا بمعنى الكلـمة، رغم اعتباره كذلك فى الـمصادر ولـم يوجد بعده وزراء حقيقيون حتى وإن كان بعض الوزراء مثل الربيع بن يونس في خلافة الـمنصور جمع بين كونه حاجبًا ووزيرًا، ويعقوب بن داود في خلافة الـمهدي كانا موضوع تسمية خاصة كوزراء. إذ أيًّا كان حجم سلطتهم فقد كان هناك أهميـة لـمكانتهم بالنسبة للحاكم. فهؤلاء الذين يعاونون الخليفة لـم يكونوا إلّا كُتّابًا. حتى نستطيع القول إنه حتى خلافة هارون الرشيد لـم يكن للوزارة وجود معترف به.

ولكـن مع هارون الرشيد يبدأ "الوزير" في الظهور ممثلًا في شخص يحيى بن خالد البَرْمَكي يساعده ابناه الفضل وجعفر اللذين حملا كذلك اللقب. وقد أفرد الـمؤلف فصلًا موسعًا خصَّصه لأسرة البَرَامِكَة التي تولَّت السلطة سبعة

عشر عامًا، مشيرًا إلى أصولها الفارسية وإلى وضعها الـمميز باعتبار الفضل وجعفر تولَّيا مهمة تربية ابني الرشيد (الأمين والـمأمون)، وإلى انقلابه المفاجئ عليهم والنكبة التي لحقت بهم، حيث يحلل المؤلف جميع الفروض التى اقترحت في هذا الـموضوع موضحًا أن الفكرة كانت تختمر منذ حين فى ذهن الخليفة.

ولـم يكن الفضل بن الربيع، الذي خلف يحيى، أكثر من الكاتب الشخصي للخليفة. وكان الـمسؤول عن القطيعة بين الأمين والـمأمون، مما يدعو إلى الظن بأنه كان له تأثير كبير في هذا التحول وكذلك دور في الدفاع عن النزعة العربية مقابل التأثير الفارسي الـمحيط بالـمأمون. ولا نستطيع مع ذلك تجاهل الصراع القائم بين الاتجاهين.

وتظهر الـمرحلة الخراسانية للـمأمون فى شخص وزيره الفضل بن سهل، الذي حمل رسميًا لقب "أمير" إلى جانب لقب "الوزير" أي أنه وزير مُنح سلطة عريضة. ويبدو أن الوزارة قد تقلَّصت بعده وأن الكُتَّاب الذين اتخذهم الـمأمون لـم يحملوا فيما يبدو اللقب. وهناك عمل مهم يتعلق بسياسة الـمأمون الدينية، أشار إليه الـمؤلف؛ فقد

نصح الخليفة من سيخلفه بالاستغناء عن الوزير واتّباع نصائح قاضي القضاة؛ فمن العجيب أن يمنح أحد المؤرخين لقب "الوزير" لقاضى القضاة يحيى بن أكثم، الذي زاد أثره لدرجة أنه لـم يتصرف أي وزير من دون استشارته، إلّا في عصر خلفه عندما أصبح لقاضي القضاة ابن أبي دُؤَاد تأثير أكبر من تأثير الوزير.

أما الفصل الذي خصصه لخلافة الـمأمون وإلى دور كل من الخليفـة ووزرائه سواء في مسألة التعاطف مع العلويين أو في تبني الدولة لمذهب الاعتزال فيعد أحد أهم فصول الكتاب.

ويدرس القسم الثانى طورًا من أطوار الوزارة له خصوصياته لتعقيدات الوضـع السياسى أطلق عليه الـمؤلف "صعوبات الوزارة". فـإذا كان الوزراء قد عادوا للظهور رسميًا مع الـمعتصم -الذي خلف الـمأمون- فإنه العصر الذي دخل فيه الجنود الأتراك غير الراضين عن دورهم العسكرى في الساحة السياسية وأصبحوا منافسين للوزراء مع تمادي الوضع الـمالى السيئ إضافة إلى الفوضى العامة.

ونصطدم في تاريخ هذه الحقبة بالاختلافات الواضحة في عديد من التقاليد الـمتعلقة بالنزاعات بين الخليفة ووزيره،

والوزير وكتّابه، والوزير وقاضي القضاة، الذي يعكس فاعلية الحياة السياسية عصرئذ. وقد استمد الـمؤلف من مصادره عن هذه الحقبة رواية متماسكة وحيوية للغاية. ويلاحظ أنه برغم الـمكانة التي يحتلها القادة الأتراك، فقد نجح الوزراء في تقوية منصبهم بالتحكم في الوضع الـمالي الذي أخذ يحتل تدريجيًا مكانة مهمة في تعيين الخليفة. فنجد لأول مرة وزيرًا مثل عبيد الله بن خاقان يحصل على سلطة تَسْمِيَة عُمَّال جميعها الولايات.

ولكن لـم تلبث أن بدأت مرحلة الفوضى في سامراء حيث أصبح أحد القادة الأتراك وزيرًا. وتعاقب الوزراء في وقت قليل. وأصبح الوزير في الغالب ممثلًا للقائد التركي الذي ينتحل السلطة. وكرد فعل عنيف أصبح للكُتَّاب أهمية متزايدة خاصة الكُتَّاب النصارى النَّسَاطِرَة سواء بقوا على نصرانيتهم أو تحولوا إلى الإسلام وترجع أصولهم إلى أسفل العراق حيث حلل الـمؤلف - لدفة السياسة الإسلامية- النصرانية، تبعًا للـمصطلح الذي أقَرَّه ماسينيون.

ونلحظ ضعفًا آخر في نظام الوزارة مع تولِّي الـموَفَّق طلحة الذي سلب السلطة من أخيه الخليفة الـمعتمد. والذي

كان في صراع مع الوزير وحسم النزاع بجعل كاتبه الخاص الوزير الرسمي للخليفة.

وشهدت الحقبة التالية مع تولِّي عبيد الله بن سليمان بن وهب ثم ابنه القاسم تزايداً في صلاحيات الوزير الذي يتجلى في منح لقب جديد هو "دولة" وبعث الـمراسلات باسم الوزير لا الخليفة، ودور الوزير في تعيين الخليفة. وترجع أهمية هذه الحقبة كذلك لبداية ظهور مؤامرات أسرتين قويتين من الكُتَّاب: بني الفرات الشيعة، وبني الجرَّاح، والذين سيصبحون بعد ذلك وزراء مشهورين. وبعد إخفاق مؤامرة ابن الـمعْتَزّ التي سجلت انتصار ابن الفرات، حمل بنو الفرات الـمكانة الأولى وأصبح ابن الفرات وزير الـمقتدر الذي اعتلى العرش.

وقد استعرض الـمؤلف بوضوح شديد تطور الوزارة في هذه الحقبة، والتي زالت ملامحها منذ عهد الـمأمون. فقد نجح الوزير، بالرغم من التقلبات والـمشكلات والتأثيرات السلبية للقادة الأتراك والقضاة وحتى الخليفة، في أن يجعل نفسه أكثر فأكثر لا غنى عنه للحاكم وأن يحصل على سلطة متزايدة وأن يكون أول شخصية مرموقة في الدولة.

وخصص الـمؤلف القسم الثالث لـما أطلق عليه "عصر الوزراء العظام" الذي أصبح فيه الوزير في مواجهة خليفة متراجع يتمتع بسلطات واسعة، ويستطيع أن يطبق سياسة مستقلة شخصية كانت مصدر خطر عليه أحيانًا. وتتميز مصادر هذه الحقبة بمعلومات غنية عنها، وهي مصادر وصفية حيث إن الوثائق الـمحفوظة تكاد تنعدم في هذه الحقبة. وقد درسها الـمؤلف بعناية وبشكل نقدي واستخرج منها موادَّ في غاية الفائدة أفاد منها في عرض الـمؤامرات الغريبة والجذابة والـمتحركة في بعض الأحيان التي جرت في وزارات عهود الـمقتدر والقاهر والراضي.

وبرز منها شخصيات مثل: ابن الفرات، وعلي بن سهل، وابن مُقْلَة، بالرغم أن الوزارات الأخرى لا تقل عنها أهميه للـمؤرخ والتي درسها الـمؤلف بالعناية نفسها.

أما القسم الرابع وعنوانه "منصب الوزير" فيتكوّن من أربعة فصول تتناول تكوين الوزراء وأصلهم، والمهام الإدارية للوزير ومسؤولياته الحكومية وجدارته. وهو موضوع جديد غير مسبوق. فهو يفيدنا في البداية عن أهمية مرتبة الكُتَّاب التي يتخرَّج فيها الوزراء في العموم، وتعرفنا بعد ذلك بطريقة

دقيقة على الخدمات الإدارية العديدة والمعقدة التي لا نعرف عنها سوى معلومات سطحية، وهو ما تتبعه الـمؤلف بدقَّة من خلال الـمؤلفات الـمتخصصة بتاريخ الوزراء والكُتَّاب التي عرفنا من خلال ما توصل له الـمؤلف من معلومات مهمة عن النظام المالي وجباية الخراج والـمكوس المحصلة ونظام الإقطاع.

وأمدنا الـمؤلف كذلك بمعلومات تفصيلية حول تنظيم الدواوين وبيت الـمال الذي يمول موارد الدولة إضافة إلى سائر الدواوين، وعلى الأخص "ديوان الرسائل". ونتعرف كذلـك علـى سلطة الوزير في الـمجال الشُّرَطِي والقضائي، وعلـى الأخص مـا يتعلق بالـمظالـم التي تواجه الدولة، وهي تمثل إضافة مهمة في مجال دراسة الحضارة والنظم الإسلامية.

الإسلام في العصور الوسطى
L'Islam Medieval

صدر هذا الكتاب سنة 1979 في سلسلة "الـمؤرخ" التي يصدرها الـمؤرخ رولون موسينيه. وهو إضافة مهمة لأعمال دومينك سورديل التي تناول فيها تاريخ الإسلام والـموجهة للقارئ الغربي والقارئ العربي على السواء. وينقسم العمل إلى ستة فصول.

يتناول القسم الأول الإسلام بصفته دينًا توجيدى عالمي النزعة يستعرض فيه المؤلف موقف الإسلام تجاه اليهودية والمسيحية، ثم أصالة الإسلام وشخصية النبي محمد، ثم ينتقل إلى نشر الإسلام بالفتوح العربية ومناقشة لـموقف الفاتحين والـمغلوبين.

ويستعـــرض فـي القسم الثاني الفضاء الإسلامي في العصور الوسطى يتناول فيه تأثير الجزيرة العربية عليه، ثم النمو الحضري للإسلام والانتقال من البداوة، ثم عوامل التنوع الداخلية، ثم الـمنتجات والتبادلات.

أما القسم الثالث فاستعرض فيه جوانب من العقيدة الإسلامية، ووضع الشريعة، وعالـم السنن، والـمجالات اللاهوتية الأولى، ثم آراء الـمعتزلة العقلية مقارنة بالـمذاهب الأخرى. ويستعرض بعد ذلك الحركة الشيعية، والتيار الصوفي، والنزعة الفلسفية.

بينما يتناول في القسم الرابع النظام السياسي للإسلام؛ مستعرضًا مفاهيم الحكم، وكيفية انتقاله وتداوله، وممارسة الحكم في العالـم السني وفي العالـم الشيعي، وتنظيم الإدارة الحكومية ثم الـمراسم والبروتوكولات.

ويستعرض في القسم الخامس النظام الاجتماعي في الإسلام موضحاً الـمساواة والامتيازات في الحقبة الـمبكرة وصولًا إلى التحولات الاجتماعية التي شهدها العصر العباسي وبداية ظهور المجموعات العرقية كالفرس والأتراك والدَّيْلـم وانخراطهم في الوسط الاجتماعي.

أما الفصل الأخير من الكتاب؛ فيستعرض فيه المراكز الحضارية الإسلامية وأنماط البناء المختلفة والمدارس الفَنِّـيَّة الإسلامية.

حَضَارَةُ الإِسْلام الكِلاسِيكِي

La Civilisation de l'Islam Classique

جانين ودومنيك سورديل

يدل العنوان الذي اختير للكتاب حضارة على الحدود التي دار خلالها الـمؤلفان، والتي لا تتعدى بحال العصور الوسطى بمعناها الغربي، والتي لـم يتجدد بعدها الإسلام، باستثناء بعض الفترات الـمضيئة، فانحصر الإطار التاريخي للدراسة حول القرون من التاسع إلى الثاني عشر للـميلاد.

يقول ريمون بلوخ – المشرف على السلسلة التي أصدرت الكتاب–: ثمة قليل من الكتب قادر على التقيد بمنهج تاريخي لا غبار عليه، يرضي تطلعات العلـماء وجمهور القراء الـمثقفين العريض. وكتاب "حضارة الإسلام الكلاسيكي" هو من هذا القليل. ومما يزيد في قيمته أن الـمكتبة الإسلامية لـم تزل تفتقر حتى الآن إلى دراسات بهذا الاتساع. وكان لا بد من سد هذا النقص، وقد سد فعلًا بجدارة لامعة. ولا بد من الاعتراف بجميل اللذين، على انشغالهما الدائب في مهام

البحث، لـم يترددا في كتابة عمل جامع مترامي الأبعاد. يجمع بين التحليل والتركيب.

ويحتوي الجزء التاريخي من الكتاب الـمتعلق بولادة الإمبراطورية وتصدعها على ثلاثة فصول مميزة تقودنا من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر؛ أي: من دعوة الرسول إلى الدين الجديد وحتى انحسار الحضارة الإسلامية في الـمغرب وتفتت حضارة الـمشرق تحت وطأة غزوات الترك والـمغول.

يشير الـمؤلِّفان في بداية عملهما إلى أنه في عالـم عربي فوضوي، قام رجل ملهم، هو محمد، يدعو إلى ديانة جديدة توحيدية مبنية على الإسلام؛ أي: الخضوع التام لله وإطاعة رسوله. وبدأت أقطار الشرق شبه الصحراوية تتعرف ولادة ديانة منزلة ذات مستقبل عظيم. وهكذا بدت الفلوات الرحاب الـمقفرة مؤاتيه تمامًا لشعور بالاتصال الـمباشر بالألوهة.

وأجاد الـمؤلِّفان رسم لوحة حياة الرسول، وهجرته وتنظيم الجماعة الإسلامية الأولى الخاضعة لشريعة واحدة مشتقـة مـن نص الوحـي، ثم أوائل الفتوحات وتنافس

الصحابة بعد وفاة الرسول، بعمق ووضوح نادرين. كانت بدور الانشقاق والارتداد كثيرة منذ ولادة العالم الإسلامي، وقد تبدت في إطار الإمبراطورية المفتوحة خلال السنوات التي تلت وفاة الرسول، ومع ذلك، لم يعرف التاريخ إمبراطورية واسعة ولدت بهذه السرعة، من جراء الرغبة الجامحة في نشر الإيمان الجديد في سائر الآفاق.

ويأتي بعد العصر الأموي المتغاير العناصر والوارث لعداوات متعددة، العصر العباسي المنتسب إلى أحد أقرباء النبي المقربين الذي سيحاول أن يرسي بحزم دعائم سلطة مبنية على عقيدة في منتهى الاستقامة. بيد أن الخصومات القبلية والدينية ظلت حية، وعلى أية حال، لم يكن بمقدور العالم الإسلامي إزالة التباين الأصلي في عناصره حتى ولو أن موجة الفتوحات الأولى قد ولدت القناعة بوحدة أكثر دوامًا. وعندما خبا البريق العباسي بدأت النزعات الإقليمية المحلية تصبغ الثقافة العربية بصبغات مختلفة؛ وذلك تبعًا لعدة عوامل، منها البلاد التي انتشرت فيها، ومنها أصالة الشعوب المغلوبة، ومنها، التسربات الخارجية الجديدة. وفي نهاية هذه الحقبة اللامعة أدى تصدع الإمبراطورية الناتج

عن التمزق الداخلي والهجمات الخارجية إلى انكفاء الحضارة العربية على نفسها بتصلـب حاد في الـمغرب، ومرونة أكبر في التكيف في بلاد الـمشرق، على الرغم من حنين عميق للـماضي.

وخصص القسم الأكبر من الكتاب لتناول الجوانب الحضارية. وبالطبع فإنه في مجتمع ناشئ وأصيل في مجمله، فإن الإسلام يعد الصلة العضوية التي تربط بين أفراده. وتزامن ذلك مع حركة الفتوح الإسلامية بالاحتكاك بالأفكار اليهودية والـمسيحية الـمنتشرة على الأخص في مصر والشام والأفكار الفارسية الزرادشتية في فارس وما وراء النهر، وأخيرًا الأفكار الهلينستية التي انتقلت إليهم عن طريق حركة الترجمة والنقل والاتصال بتلاميذ الـمدرسة اليونانية القديمة الذين انتقلوا إلى الشرق.

وأشار الـمؤلِّفان كذلك إلى ما تميز به القرن الثامن من ظهور تيار التصوف، ثم الـمدارس الفكرية الـمختلفة ممثلة في الـمعتزلة والأشعرية والـماتريدية الذين تصدوا للأصولية السُّنِّيَّة، وواجهـوا معًـا تيـاري الشيعة والخوارج اللذين وُجدا منذ القرن السابع.

إن الـموضوع الواسع والـمشرق الذي توخى كل من الـمؤلفين الإحاطة به وإلقاء الأضواء عليه، هو مصير الحضارة الإمبراطورية الأولى في الإسلام، الـمتسمة بسيطرة الأمويين ثم العباسيين، تلك الحضارة التي اعتبرت فيما بعد النموذج التام لـمجتمع عربي –إسلامي يصدر مباشرة عن مبادئ القرآن. كان بريقها، خلال خمسة قرون، عظيمًا وتأثيرها دائمًا وبعيدًا، حقًا، إن المعطيات الاقتصادية والاجتماعية الـمتصلة بها هي أقل مما نتمنى، كما أن الآثار الباقية منها ما زالت غير مدروسة أو معروفة بصورة كافية. إلا أن الكاتبين، المطلعين تمامًا والمشاركين في أحدث الأبحاث، قد أجادا استخـلاص كـل الـمادة التاريخية الـممكن استخلاصها من الوثائق الـمتاحة.

ولكن الفصل الأكثر جاذبية هو من دون شك الفصل الـمتعلق بالحياة الاقتصادية وبالطبقات الاجتماعية، كما خصص الـمؤلفان فصلًا كاملًا عالجا فيه قضية مشكلة الـمياه في هذه الأقاليم، خصص له أكثر من مئة صفحة. ومن الفصول الـمهمة في الكتاب الفصل الذي تناولا فيه التجار والحرفيين ودورهم في الحياة العامة. كما أفردا فصلاً مهمًا

وجديدًا في الوقت نفسه عن مركز الحكم وحواشي الحكام، وكذلك الـمدينة وتطورها العمراني.

وأوردا نهاية الكتاب، معجم تعريفات Glossaire ثمينًا هو في الحقيقة كنز لـمعلومات قيمة. ويجد القارئ العناية والدقة نفسها سواء في تحرير الـمتن أم في الحواشي أم في الـمقالات الـموجزة التي تقدم ما يمكن اعتباره موسوعة قصيرة ودقيقة للإسلام.

مقالاتُه في دائرة المعارف الإسلامية

تُعَدّ المداخل التي حَرَّرَها دومنيك سورديل في دائرة المعارف الإسلامية (L'Encyclopedie de L' Islam (2 edition أصدق تعبير عن تخصصه الدقيق المتمثل في دراسة "الوزارة العباسية في عصرها الأوَّل" فجاءت كلها لتغطي بالتفصيل عناصر مهمة تناولها في رسالته. فمن أول المداخل التى حرَّرَها مادَّة "بَيْت الحَكْمَة" وهي المؤسسة التي وضع أساسها الخليفة العبَّاسي هارون الرشيد لتكون بمنزلة أوّل مكتبة عامة في الخلافة الإسلامية، وازدهرت أيَّما ازدهار في عصر خلفه الخليفة المأمون الذي تبنَّى حركة الترجمة والنقل من الثقافات اليونانية والفارسية والسنسكريتية الهندية إلى العربية، والتي أدَّت إلى تعرُّف الفكر العربي الإسلامي على الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطى ووضعه أمام تحديات كثيرة لا عهد له بمثلها من قبل.

وكان مَدْخل "البَرامِكَة" يرتبط تمامًا بحقبة الخليفة هارون الرَّشيد الذي عهد إلى أسرة البرامكة بالسلطة التنفيذية

في عهده، ومنحهم سلطات واسعة، وأفسح لهم الـمجال للإشراف على جميع مرافق الحياة العامة في الإدارة والأعمال والعلوم، بحيث لـم يتركوا ناحية من هذه النواحي إلَّا وشملوها بنظرهم، بحيث أصبحت لهم في نفوس الناس مكانة عالية. وأدَّى وصول البرامكة إلى قمة السلطة إلى انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في بناء الدولة الإسلامية. ثم النَّـكْبَة التى لحقت بهم واختلف الـمؤرخون في أسبابها، والتي انتهت بانتصار العرب في هذه الجولة وتولَّى الوزارة بعدهم الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي الذي أفرد له دومنيك سورديل مدخلًا حَلَّل فيه هذا التحوُّل الذي كان على يديه.

وأفرد سورديل كذلك مدخلًا حَلَّل فيه دور الوزير الفضل بن يحيى البرمكيّ - أخي الرشيد من الرضاعة - والذي ولَّاه الرشيد، في أول الأمر بلاد الـمشرق وخُراسَان وما وراء النهر.

وخصَّص سورديل ثلاثة مداخل، تناول فيها ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم إبراهيم بن المهدى، الذي بويع بالخلافة سنة 201هـ، والقاهر بالله والقادر بالله.

كما كتب سورديل ثلاثة مداخل تناول فيها سيرة حياة الوزير أبي على بن مُقلَة، الـمتوفَّى سنة 328هـ/ 940م، الذي انتهت إليه وإلى أخيه أبي عبد الله جودة الخطّ وتحريره. ويُعَدُّ ابن مُقّلَة أوّل من هَندس الحروف العربية وقدَّر مقاييسها وأبعادها بالنُّقط وضبطها ضبطاً محكمًا، وهو ما أصبح يعرف بعد ذلك بالخط الـمنسوب. وسيرة حياة أبي عبد الله محمد عبدوس الجهشيارى صاحب "كتاب الوزراء والكتاب"، وهو مصدر مهم اعتمد عليه في رسالته عن "الوزارة العباسية" والذي يعد أشهر مؤلف أرَّخ للوزراء في الإسلام، وهو من طبقة محمد بن جرير الطبرى وعلي بن الحسين الـمسعودى، حيث توفي سنه 331هـ. ويقدم لنا الجهشياري معلومات مهمة عن الوزراء، وكتَّاب الدواوين منذ بدء الدولة الإسلامية حتى سنة 296هـ/ 909م، تأريخ وفاة الوزير أبي أحمد العباس ابن الحسن وزير الـمقتدر بالله. مستفيدًا في ذلك من موقعه في الإدارة العباسية الذي مكَّنه من الاطلاع على سجلاَّت الدولة والوثائق الرسمية. وإن كان ما وَصَل إلينا من الكتاب يقف عند أيام الخليفة عبد الله الـمأمون.

وحَرَّر سورديل كذلك مدخل هلال بن المحسِّن الصَّابي، الـمتوفى سنه 448هـ/ 1055م، أحد الذين خدموا في ديوان

الإنشاء في عهد صمصام الدولة بن بُويْه. والذي استدرك على الجهشيارى أخبار الوزراء حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الـميلادى في كتاب "تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء" حيث يقدم لنا معلومات في غاية الأهمية عن التفاصيل الإدارية للدولة. كما أتاح وجود هلال الصَّابي في دواوين الدولة العباسية ومخالطته للخلفاء أن يقف على شؤون دار الخلافة وما كان يُتَّبَع فيها من رسوم سجلها في كتاب "رسوم دار الخلافة".

ومن الـمداخل الـمهمة التى حَرَرها كذلك مدخل ابن شَدَّاد، عز الدِّين أبي عبد الله محمد بن على بن ابراهيم، المتوفَّى سنة 684هـ/ 1285م مؤلف كتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " الذي نشر سورديل الجزء الأوَّل منه الـمتعلق بتاريخ مدينه حلب.

دومينك سورديل مُحَقِّقًا

نشـر سورديل نَصًّا تاريخيًا واحدًا، هو الجزء الأول من كتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" لعِزّ الدِّين بن شَدَّاد، وهو النّصّ الذي اقترحه عليه أستاذه المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه Jean Sauvaget موضوعًا لأطروحته التكميلية للدكتوراة، ونشره له الـمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة 1953 وأهداه لذكرى أستاذه جان سوفاجيه.

ورغم أن هذا هو النص الوحيد الذي أخرجه سورديل في مجال النشر النقدي للنصوص، إلاّ أنه يَدُلّ على قدرته فى دراسة الـمخطوطات من الناحية الكوديكولوجية وإخراج نص محقق بمنهجية علـمية.

فأشار فى مقدمة النشرة إلى أن أهمية كتاب ابن شدَّاد ووصفه لحلب، الذي يمثله الجزء الأول، لـم يكن معروفا إلا من خلال نقول الـمتأخرين عنه وخاصة عند ابن الشِّحْنَة صاحب كتاب "الدر الـمنتخب فى تاريخ حلب " والذي

توفَّر على دراسته أستاذه جان سوفاجيه. واعتمد سورديل فى إعداد نشرته للكتاب على ست نسخ أهمها نسخة مكتبة الفاتيكان التي اتخذها أصلاً للتحقيق وقَدَّم لها وصفًا كوديكولوجيا دقيقًا حيث كانت بين كتب " العبد الفقير إلى ربه عبد الله بن الأفْرَم غفر الله لهما، "ثم صارت" في نوبة العبد الفقير إلى رحمة ربه الغنى أحمد بن سليمان بن محمد الإسَعّرْدى بتاريخ العشر الأوسط من ذي الحجة الحرام سنة سبعون [كذا] وسبعمائة".

ثم وقفها في سنة 921هـ/ 1515م المقر الكريم العالي..... محمود بن أجا كاتب الأمراء الشريفة بالديار الـمصرية وجعل مقره بخزانته داخل مدرسته التي بخطّ قنطرة آق سنقر على طلبة العلـم الشريف.

وقدَّم ملخصًا باللغة الفرنسية لـمضمون الكتاب وفصوله الرئيسة، واكتفى فقط بإثبات اختلاف القراءات apparatus criticus بين نسخة الأصْل وبقية النسخ التي اعتمدها، كما كان سائدًا فى مناهج الـمستشرقين حتى ذلك الوقت بغرض تقديم نَصٍّ أقرب ما يكون إلى نَصِّ الـمؤلف.

مُقْتَطَفَاتٌ من كِتَابَاتِه

(1)

الإسلام قبل كل شيء هو دين عالـمي، وبذات الوقت فاتح، وقد نهض فجأة، في القرن السابع من عصرنا، ثم استمر توسعه ببطء ولكن بشكل منتظم. وبهذا العنوان كان للإسلام عقيدة سوف ندرس فيما بعد مظاهرها الـمتتالية والـمتزامنة، الـمرتبطة بالأحداث السياسية والتاريخية.

وبهذا الـمعنى أيضاً ظل الإسلام أمينًا لرسالة ما انْفَكَّ يدافع عنها، رسالة دين مُوَحِّد استطاع أن يثبت نفسه ثالثاً بعد اليهودية والـمسيحية اللتين أراد أن يُكْمِلَهُما وبذات الوقت أن ينفصل عنهما، مكتفيًا بالاعتراف الجزئي بمصداقيتهما: فنَبِيُّ الإسلام وحده هو الذي تلقى بصورة كاملة الرسالة التي تلقاها من قَبْل إبراهيم، بعد أن شَوَّهَها بعده، أولئك الذين ائتمنوا عليها.

هكذا يجب أن نفهم وضع الإسلام في الـمقام الأول، مقارنًا بالديانتين العالـميتين والكبريين اللتين أراد الإسلام

أن يحل محلهما، واللتين أدَّى تطوره ونموه إلى مجاراتهما وأحياناً إلى مواجهتهما. ويتوافق هذا المسعى مع موقف المستشرقين الذين لم يستطيعوا دراسة الظواهر الإسلامية الخالصة من دون أن يحددوا موقفهم من مصادرها. وقد قاموا بذلك وفقاً لمعايير تختلف حُكْمًا عن المعايير التي استخدمها المسلمون، ولكن من المفيد الرجوع – مهما اختلفت التأويلات أو تعارضت– إلى المعطيات الأساسية التي استمدوها من التراث الإسلامي بالذات، التي اكتفوا بأن ينظروا إليها من بُعْدٍ آخر مختلف تمامًا.

1- الإسلام تجاه اليهودية والمسيحية

لقد كان موقف المؤمنين المسلمين بسيطاً للغاية عندما ماثلوا إيمانهم بالوحدانية الأولى التي جاء بها النبي إبراهيم، الذي قَدَّمَه القرآن على أنه الباني المؤسس لحرم مكة، الكَعْبَة، وعلى أنه بذات الوقت مُحَطِّم الأصْنام ووالد إسماعيل الذي يرى فيه العرب جدَّهُم جميعًا. ويَحْتَلُّ إبراهيم مركزًا مميزًا بين الأنبياء الذين يشير إليهم النَّصُّ القرآني، ليس هذا فقط بل إن الأحاديث النبوية تجعل منطقة مَكَّة مكان تضحيته بابنه الحَدَث الذي يشير إليه القرآن إشارة

صريحة. وقد جُعِلَت هذه التضحية مَنْسَكًا من مناسك الحَجّ طُبِّق عبر العصور وما يزال بقدسية متزايدة.

لـم يمنع موضعة هذه السُّنَّة الإبراهيمية في الحجاز، واعتبارها إرْثًا عربيًا، من ربطْ الدَّعْوَة الـمحمدية بالقُدْس عبر حادثة «الإسْرَاء» التي توسّعَ الشُّرَّاحُ في تفصيلها تأويلاً لآية قرآنية. فقد انتقل محمد من ساحة الـمعبد القديم (الـمسجد الأقْصَى) الكائن بهذه الـمدينة، إلى السماوات العُلَى حيث لاقى أنبياء "العَهْد القَدِيم". وتضيف السُّنَّة ذاتها، اعتمادًا على السيرة الـمكتوبة، في الأغلب في بداية القرن الثامن، إن موسى نصح محمدًا، أثناء عُرُوجِه، بأن يطلب من رَبِّه تخفيضًا لعدد الصلوات اليومية، وهكذا اقتصرت على خمس صلوات في اليوم. ثم أن موسى- وهو صاحب أول كتاب موحى يؤيده القرآن ويَحلّ محله – يتَرَدَّد ذِكْرُه كثيراً في مختلف السَّوَر: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ...﴾. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

ويذكر إلى جانب موسى أنبياء التَّوْرَاة، كلًّا ضمن إطار قِصَّة تتناول محيطه الذي عاش فيه، وكأنهم قد جاؤوا شُعُوبَهُم برِسَالَة ظلوا عنها غافلين.

وتتكامل صورة الشخصيات التوراتية المشتركة بين الإسلام واليهودية والـمسيحية على وجْه أَخَصّ حسب الـمعتقدات الإسلامية، بوجود الـمسيح بينها الذي يَعُدُّه القرآن نَبِيًّا، فهو يُقِرُّ بوُجُود ابن مَرْيَم ويعترف بولادته البَتُولِيَّة، ويمنحه مرتبة سامية بأنه من روح الله، ولكنه لا يراه "ابْنًا لله" ولا يجعله مَصْلُوبًا (بل شُبِّه لهم أنه صُلِب). ويقترن هذا الاحترام لشكل يسوع بآيات قاسية موجَّهة ضد الـمسيحيين الذين تَخَلَّوا عن العقيدة الحَقَّة واعتنقوا الشِّرْك بالله، القريب من الوَثَنِيَّة في نظر الـمسلـمين، حيث نلاحظ تحويرًا لعقيدة "التَّثْلِيث". وبهذا الـمعنى لـم ينفك الإسلام يذكر الأديان الـموَحِّدَة القديمه، ويسمي الـمؤمنين بها بأنهم "أَهْل الكِتَاب" وأنهم جاءتهم رسالةٌ شبيهةٌ برسالة الإسلام، التي يعيد إليها نَقَاءَها وصَفَاءَها الوَحْيُ القرآني ذو الأصل الإلهي الذي هو أساس الإيمان الإسلامي.

وهكذا يبدو – في نظر الـمسلـمين– أن محمدًا قد أُرْسِلَ لتوضيح الدِّين الجديد، في مواجهه مسيحية ويهودية كانت ممثلة يومئذ – في الجزيرة العربية بمجموعات من الـمؤمنين نشيطين إلى حَدٍّ ما – فقد وُجِد في مَكَّة، قبل الدَّعْوَة الإسلامية، بَعْضُ الـمسيحيين من غير ذوي الشأن، إن لـم

يكونوا عَبِيدًا، كما وجدت في يَثْرِب – التي سوف تصبح المدينة فيما بعد– طائفة يهودية مهمة سوف يكون للنبي معها، بعدما يجاورها عقب الهجرة، شأن صعب، حتى اضطر إلى طردها أو القضاء عليها بسبب خيانتها للعهود المقطوعة بينها وبينه. ويرفض الرأي العام المسلـم الحديث عن أي تأثيرات ممكنة قد تكون أثرت في فكر محمد "رسول الله" ناقل حقيقة مطلقة خارجة عنه بالتحديد.

وقَلـما يوجد هذا الوضع عند علـماء غربيين فهم يترددون في وضع الوحي القرآني "في أثر" الوحي السابق الذي شَوَّهَه "الـمؤتمنون عليه" بل بالعكس، فإن هؤلاء العلـماء، عندما يعملون على إبراز أَوْجُه الشَّبَه الـممكنة بين نُبُوءَة محمد والدَّعَوَات السابقة، يقعون صراحةً وعلنًا في الجدل الدِّيني، الذي ليس من شأن الـمؤرخ، وإن كان يصعب عليهم – في أغلب الأحيان – تفاديه. فاحتمالات النزاع الكامنة توجد في هذا الـموقف، ويشعر بوجودها، بشكل ما، كل أولئك الذين يهتمون بالإسلام، فتبدر عنهم، في موضوعه، مواقف ومشاعر شخصية حَرَّفَتها أهواءٌ عصرية ذات صبغة سياسية.

لا شك أنه من الـمفيد هنا أن نشير إلى بعض الطروحات التي لـم تَنْفَك تُغَذِّي، في هذا الشأن، بحوثًا ومناقشات، وتُمَكِّن- في الوقت ذاته- من استشفاف خلفية من الصراعات الدينية – ما تزال حية – وراء حيادية الوقائع الـمجردة الـمعروضة، بعد أن سبق لها ان تَحَكَّمَت إلى حَدٍّ كبير بالـمواجهات التي حصلت في العصر الوسيط.

وتُسْتَمَدُّ هذه الـمواجهات على سبيل الـمثال من أوْجُه الشَّبَه الخارجية، التي تكشفها أيَّةُ مقارنة بين الإسلام واليهودية التي يُقَدِّسُ كُلٌّ منهما نَصًّا مقدسًا جاء الشُّرَّاحُ يفسرونه، كما تشرحه مجموعات السُّنَن: وفي الحالتين لا يقوم الدِّين علي تقليد نموذج كامل، بل على تنفيذ تعاليم حَدَّدَها فُقَهَاءُ العلوم الدِّينية.

وتتضَمَّن كُلٌّ من العقيدتين، ليس فقط مواد إيمانية يَتَوَجَّب على الـمؤمن أن يلتزم بها، بل كذلك نظام حياة سلوكية واجتماعية، يكون صارمًا في بعض الأحيان، يحدد بتفصيلٍ أعمال الحياة اليومية، ويعطي أهمية خاصة وأوَّلِيَّة لصفاء الطُّقُوس، كما ينص على محظورات غذائية متقاربة أحْيانًا.

من هنا تنشأ حِدَّة الـمشكلة التي يطرحها موقف محمد تجاه يهود الـمدينة، بعد أن كان قد قبلهم في البداية ضمن الجماعة الجديدة (وبعد أن كان اعترف لهم بحقوقهم، بموجب هذا النَّصّ الذي سمي خَطَأ بـ"دستور الـمدينة") ثم وصفهم فيما بعد بالـمنافقين، وأحيانًا بناكثي العُهُود، وعاقبهم على هذا الأساس.

وقد ثبت أن محمدًا أقام مع هذه الـمجموعات اليهودية علاقات تجاوزت حدود الاتفاق السياسي البسيط، وذلك بفعل أن نَبِيَّ الإسلام قد أمر بادئ الأمر بالتَّوَجُه في الصلوات اليومية تجاه القدس. ويشير النص القرآني إلى ذلك والتغيير الذي تَمّ، عندما استبدل النَّبِيُ التَّوَجُّه إلى القُدْس بالتَّوَجُّه إلى الكَعْبَة في مَكَّة.

كما أن العلـماء الـمعنيين بالإسلام كثيرًا ما تساءلوا حول هذا التَّحَوُّل في الوَحْي القرآني. وقد حاولوا أن يتفهموه في ضـــوء إطاره الديني؛ أي: من الآيات الـمتنوعة الـمعزوة -بحسب السُّنَّة- مَرَّة إلى الحقبة الـمكية ومَرَّةً إلى الحقبة الـمدنية، أثنـاء حيـاة الرسـول. ظَنَّ البعض أنه اكتشف بهذا الصدد تطوُّرًا مُنِحَت بموجبه شخصية إبراهيم أهمية متزايدة،

في الوَقْت الذي أصبحت فيه مَكَّة قِبْلَة الـمسلـمين في صلواتهم، وأن محمدًا -وقد انفصل عن اليهود- أخذ يهاجمهم بعنف. كتب الهولنـدي فنسنـك، مثلًا - بعد سنوك - هورجوني- "لقد استطاع محمد أن يَنْعَتِقَ من اليهودية القائمة، بالاستناد إلى اليهودية الإبراهيمية (أبراهام)، فاعتبر هذه الأخيرة سابقة الإسلام. وبذات الـمعنى تكلـم الإنكليزي طوري عن "أساس يهودي للإسلام"، ولـم يتردد اليسوعي الفرنسي لامَنْس في وصف الإسلام بأنه "تكييف عربي للوحدانية التوراتية"، كما صَرَّحَ الألماني هارناك "أن الإسلام هو إعادة صياغة للديانة اليهودية على الأرض العربية، بعد أن تعرضت الديانة اليهودية بالـذات لعملية مماثلة بعد تعاطيها مع مسيحية غُنُوصِيَّة مُتَهَوِّدَة".

[من كتاب *L'Islam medièeval* (نقله إلى العربية علي الـمقلد بعنوان "الإسلام في القرون الوسطى"، بيروت 1983)]

(2)

إنَّ حركـة الاعْتِزَال، التي رأينا آنفًا بعض علائمها، قد سَبَّبَت الاضطراب في وسط الأُمَّة الإسلامية في مطلع القرن التاسع/ الثالث. لذا يجدر بنا أن نبدأ الآن بالنظر في مذهبها من دون أن يغيب عَنَّا أنها كانت في الأصل حركة دينية تندرج في عداد تلك الفِرَق التي أطنب مؤرخو الفِرَق السَّلَفِيُّون في فضح مثالبها.

ومن الـمعلوم أن غموضًا كبيرًا ما زال يكتنف أصول هذه الفرقة والطريقة التي دَمَجَ فيها رجالُها الأوائل مختلف الأفكار التي كانت قد ظهرت مع أفول نَجْم الأمويين. ولكن ما أن تَكَوَّنَ الاعتزال كحركة حتى حَدَّدَ أصحابُه أنه مذهب الأُصُـول الخَمْسَـة: التَّوْحِيـد، والعَدْل، والوَعْد والوَعِيد، والـمنْزِلة بَيْن الـمنْزِلَتَيْن، والأمْـر بالـمعْـرُوف والنَّهْي عَـن الـمنْـكَر.

وهكذا قَدَّمَ الاعْتِزَالُ نظرية في وجود الله وصفاته وعدله، وجد فيها خصومُه بِدْعَةً مُنْكَرَة، بينما أقامها أصحابه على آية قرآنية اعتبروها أساسية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [شورى: 11]، تُدَافِعُ عن الله الذي لا يغيره شيء، وتُشَدِّدُ على وحدانية الله

الـذي، بحكـــم ألوهيته، لا يحتمل أية مقارنة ولو بعيدة مع العالـم الـمخلـــوق، والذي لا يليق تَصَوُّرُه متصفًا بالصِّفَات التي تُذَكِّر بصِفَـات البشر الـمخلوقين أو بنشاطاتهم. ومع أن القرآن تكلـم عن «يَدِ» الله أو عن «وَجْهِه» فيجب أن يحمل ذلك على معناه الـمجازي الذي يشير إلى كَرَم الله، كما يجب أن يُفَسَّرَ «العَرْش» الذي يستوي عليه تفسيرًا مجازيًّا. ولـما كان الكتاب العزيز يشتمل على ألفاظ تُوهِمُ بالتَّجْسِيم والتَّشْبِيه، فقـد أعلـن الـمعتزلة أنه لا يجب أن تؤخذ هذه العبارات بمعناها الظاهر، بل لا بد من تأويلها.

ونتيجة ذلك فلا يجوز للـمؤمن أن ينسب إلى الله الواحد الـمتعالي الصِّفَات التي قد يخطر بباله استنتاجها من هذه العبارات، كالبَصَر والسَّمْع والعِلـم والقُدْرَة. ولـم يقبل المعتزلة إلحاق هذه الصِّفَات بالألوهية وإنها بالتالي قديمة بقدمها، بل اعتبروها مجرد مظاهر للجَوْهَر الإلهي غير مُتَمَيِّزَة عنه. أما الألفاظ التي تدل عليها فيمكن تفسيرها بعجزنا عن معرفة ما هو أَبَدِي معرفة تامة، فضلًا عن أنها لا تُطَابِقُ الواقع، ويشهـد علـى ذلـك قَوْلُ النَّظَّام: "الله عالـم، حَيّ، قادِر، سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، قَدِيمٌ بذَاتِه لا بعِلـم وحياة قدرة وسمع وبصر وقـدم".

وقَـوُلُ أبــي الهُذَيْــل العَـلَّاف "إن لله عِلـمـا هـو هـو" [الأشعري: مقالات الإسلاميين 188].

بيد أن هذا الـموقف الـمتسق منطقيًا لـم يَحُل دون تعرض أصحابه لـمشكلات حرجة. وإذ أراد بعض الـمعتزلة تحاشي مذهب وَحْدَة الوُجُود الذي يُوَحِّدُ بين الله وكل ما يصدر عنه، فقد ترددا في كيفية تصور إرادة إلهية مزدوجة الـموضوع: العَالـم الـمخْلُوق بأمــر الله والقانون الأخلاقي الصادر عن حكمه. أما في مسألة طَبِيعَة القُرْآن فقد تبنوا بلا مناقشة الـمذهب القائل بأن كلـمة الله، الـمنَزَّلَة في الزمان والـمكان والـمتجمدة في الألفاظ الـمكتوبة الـمقروءة، هي ممكنة ومخلوقة. وقد رأوا أنه لا يمكن لكلام الله أن يكون صِفَةً أزَلِيَّة من صِفَاتِه؛ لأنه لـما كانت هذه الصِّفَة متميزة بالضرورة عن الـموصوف، فإن اعتبارها أزَلِيَّة يقود إلى الشِّرْك بالله. إن عقيدة خَلْق القُرْآن، اللازمة عن تصور الـمعتزلة لوحدانية الله، هي الـمظهر الأكثر تمييزًا للحركة الجديدة والـمظهر الذي سيكون من أهم أسباب الصدام مع السَّلَفِيِّين. وقد أضيف إلى ذلك إنْكَارُ رُؤْيَة الله في الآخرة، إذ فُسِّرَت هذه الرؤية على أنها إدراك عقلي محض.

ومن الجدير بالـملاحظة أيضًا أن الـمعتزلة قد توصَّلوا، بموازاة ذلك، إلى تفسير الطبيعة والتَّغَيُّر في العالـم الـمخلوق الذي لا يشابه الله، واعتماد نظريات فلسفية هذه الـمرة أخذوها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن مُفَكِّرِي الإغْرِيق. ولكن كانت هنا فروق عظيمة بين أهم ممثليهم، إذ تمسك بعضهم بتَصَوُّر ذَرِّي للوجود، بينـما لجأ بعضهم الآخر، في محاولتهم لتفسير الحركة، إلى نظرية طريفة في "الطَّفْرَة" التي من شأنها أن تحل الـمعضلات التي اعترضت إيليين في القِدَم، ولو أنهم اتجهوا جميعًا نحو تَصَوُّرات حتمية تُمَكِّن من تفسير استمرار الوجود من دون الاستعانة بفكرة الخلق الـمتَجَدِّد.

أما الأصل الـمعتزلي الثاني فهو الاعتقاد بالعَدْل الإلَهِي الـمطلق، ومنه تتفرع الأُصول الثلاثة الباقية - وهذا يفسر لـماذا كان يطلق على أصحاب هذا الـمذهب اسم "أهْـل التَّوْحِيد والعَدْل"، من دون أي إيضاح آخر. ولـما كانت فكـرة "العَـدْل الإلَهِي" تستلزم حتمًا استحالة إقدام الله على فِعْلِ الشَّرّ – "الباري تعالى حكيم عادل- على قول وَاصِل - ولا يجوز أن يُضَافَ إليه شَرٌّ ولا ظُلـم" ـ فقد نتج عن ذلك

تَصَوُّر تفـاؤلي يعتبر أن الشَّرَّ ظاهري لأن العناية الإلهية تدير الكل لغاية صالحة جدًّا – وإن تكـن خَفِيَّة في معظم الأحيان – لذلك أثبتوا حُرِّيَة إرَادَة الإنْسَان، الـمسؤول الوحيد عن الشَّرّ الذي يرتكبه، إذ إن الله قد مَكَّنَه بالعَقْل من معرفة القانون الأخلاقي، ومنحه الإرادة لتنفيذه. ولذلك اعتبروا أخيرًا أن هذا القانون الأخلاقي – وإن يكن صادرًا عن حُكْم الله – فهو يمثل الخَيْر الـمحْض الذي يجب على الله نفسه أن يراعيه: وهذا موقف متطرف انساق إليه الـمعتزلة وحاول بعضهم تلطيفه حفاظًا على الحرية الإلهية.

ولما نهض المعتزلة للدفاع عن الحرية الإنسانية اضطُروا إلى تقديـم تفسيرات للآيات القرآنية التي توحي بنَقِيضِ ذلك، فأثبتوا أن الأعمال المنسوبة إلى الله ليست سوى أحكام يصدرها على الذين آمنوا أو ضَلُّوا. وفي رأيهم أن الإنسان يَنْعَم تمامًا بالوَعْد الإلهي إذا أحسن، ويلقى الوَعِيد كاملًا إن هو أساء، فثمة لا مغفرة من الله ممكنة ولا للنَّبِيّ شفاعة عنده، على الرغم مما قد توحي به بعض عبارات الكتاب العزيز.

أما الـمؤْمِن مُرْتَكِب الكَبِيرَة فلئن لـم يخرج من الأمة فعليه أن يبقى فيها، بانتظار تَوْبَتِه، في "منزلة بين الـمنزلتين".

ولكي يكون الـمرء مسلـما لا يكفيه أن يؤمن، بل لا بد له من القيام بالفرائض. فإذا فُهِمَ الـمذهب الصالح على هذا النحو حق احترامه وتطبيقه على الجميع بدءًا بالإمام، وهذا فرض "الأمر بالمعروف". لذلك وجب ألا تُوكَل الإمَامَة إلَّا إلى رجل صَحَّ إيمانه: فأصبحت الفضيلة الشخصية أساس الإمامة التي يجب على القائم بأمرها التصرف بحزم لإبقاء المؤمنين على صِرَاط الإسلام المستقيم، وبالمقابل فالخروج عليه مشروعٌ في حال تَنكُّرِه لـمهمته.

هذا إذن جوهر الفكر الـمعتزلي. ولكن ماذا كانت تمثل هذه الحركة التي برزت إلى النور في عهد الـمأمون، التي عدّها بعض أحيانًا مجرد "نَسَق فَلْسَفِي"؟ كما لاحظ نِيبُرْغ: عندما ننظر إلى الـمعتزلة "لا نجد أنفسنا إزاء مفكرين أحرار متفلسفين، ولا أمام زُهَّاد منفصلين عن العالـم، بل أمام مُنَظِّرين ودعاة ذوي اتجاه أصولي ونشاط عملي". لا شك في أن الـمعتزلة قد تأثروا مباشرة، أو غير مباشرة، وبدرجات متفاوتة بفَلَاسِفَة الإغْرِيق، فأخذوا عنهم، فيما يبدو، طرق الـمجادلة والـمقولات التي كانت تسود آنئذ مجمل الفكر تقريبًا في العصر الوسيط، سواء في الشرق أو في الغرب. ولا

شك أيضًا في أنهم قد تَوَصَّلُوا إلى قيام العَقْل البَشَرِي بدور لـم يكن غيرهم من الـمفكرين السَّلَفِيِّين مستعدًا لقبوله. بيد أن ذلك لا يمنع من كونهم عقولًا دينيـة أصـلًا، تسعى إلى نُصْرَة دينها ضد الـمسيحية وبنوع أَخَصّ - لدينا عليه أدِلَّة لا تقبل الدَّحْض - ضد الـمانَوِيَّة، وتجهد في جعل معتقداتها أكثر تماسكًا إن لـم نقل أكثر منطقية. فهم لـم يقصدوا الانسلاخ عن الـمعطى الديني، بل حاولوا أن يَبُثُّوا فيه نشاطًا أكبر ومزيدًا من قوة الإقناع، مستندين إلى بعض الآيات الاساسية التي استمدوا منها تصوُّرهم العقلي للألوهية، ومؤوِّلين الآيات التي بدت لهم مناقضة لهذا التصوُّر. ولـما كانوا مُنَظِّرِين مَذْهَبِيين فقد عمدوا إلى نشر تصوُّراتهم في الأمة الإسلامية؛ وبذلك كانوا "دعاة". ولئن علـمنا قليلًا عن دور الدعاة الذين بعثوهم إلى مختلف أنحاء الدولة أواخر العهد الأموي، فمن الظاهر أن هؤلاء قد اشتركوا أحيانًا في الانتفاضات العلوية حتى لو لـم يناصروا تماما الحركة العباسية التي أُرِيدَ ربطهم بها. ويبقى أنهم اضطروا غالبًا، في مطلع العصر العباسي، إلى الاستتار والعمل على بلورة مذهبهم. ومع أنهم طُورِدُوا أيام هارون الرشيد، فقد تمكنوا مع ذلك من كسب مؤيدين

نافذين ولا سيما في صفوف الـموالي الفُرْس الذين قاموا بدور كبير في البلاط، حتى توصلوا إلى التأثير في أحد أبناء الخَلِيفَـة الـمزمع تسميته عبد الله الـمأمون.

وهو ما يُفَسِّر الـمكانة الـمرموقة التي تمتَّع بها بعض الـمعتزلة البارزين الذين أقامـوا مع الخليفة الشاب في مَرْو. ومن الصعب أن يُعْزَى إلى نفوذهم الـمباشر مـا عزم عليه الخليفة من تسمية أحد العلويين لخلافته. ولكن يجب ألَّا يفوتنا أنهم كانوا يحيطـون بالـمأمون إبَّان تلك الحقبة التي هَزَّت الأمة هَزًّا عنيفًا وجعلت العلـماء الذين مال الخليفـة إلى استشارتهم من ثم في بغداد من الـمنتمين إلى الـمذهب نفسه. ويذهب بعـض الـمؤرخين إلى أن الخليفة قد أمر، نزولًا على تصيحتهم، بترجمة بعض الكتب الفلسفية والعلـمية الـمجلوبة من بِيزَنْطَية. والأكثر من ذلك أن الـمأمون، في أواخر عهده الذي لـم يكن ليتوقع نهايته القريبة الـمفاجئة، قد عزم بغرض إرضائهم على فرض مذهب الاعتزال بصورته الأكثر تَطَرُّفًا؛ أي: عقيدة خَلْق القُرْآن ـ ويؤكِّد، في الوقت نفسه، على تفضيل عليّ على معاوية في محاولة للَجْم القطاع الـمتعاطف مع الأمويين والحائل دون الـمصالحة بين العباسيين والعَلَويين.

هكذا يبدو أن الخليفة المأمون لجأ إلى مذهب الاعتزال لتَبَنِّي سياسة جديدة تهدف إلى تحييد الشيعة واستمالتهم. فكانت هذه السياسة منطلقًا لمحكمة تفتيش حقيقية، عُرِفَت في الأوساط السَّلَفِيَّة باسم "المِحْنَة". إذ إن المأمون، الذي كان آنئذ منشغلًا في الشام بإدارة العمليات العسكرية ضد البيزنطيين، قد أمر إسحق بن إبراهيم- صاحب الشُّرْطَة وممثله في بغداد- بامتحان قضاة المدينة وضواحيها وإشعارهم بوجوب الاعتقاد بـ "خلق القرآن"، كما كان على القضاة أنفسهم أن يخضعوا الشهود الذين كانوا يعاونوهم على إصدار أحكامهم لمثل هذا الامتحان.

وفي الرسالة التي بعثها إلى إسحق بن إبراهيم، عَبَّر الخليفة عن مطالبه المحقة في حفظ الديانة على الصراط المستقيم، بيد أنه منح نفسه حقوقًا لم يطالب بها أسلافه قط، وتكلم بكلام شديد اللهجة قال: "أما بعد، فإن حق الله على أئِمَّة المسلمين الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم" ثم تابع منتقدًا العَوَام بعنف قائلًا: "وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسِفْلَة

العامة مِمَّا لا نظر لهم (...) في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالـة عن عقيدة دينه وتوحيده بالإيمان به"، وهاجم رجال الدين الذين "ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن" ويجتهد من ثم في إثبات حقيقة دعوى خَلْق القُرْآن مستندًا إلى الآية الكريمة القائلة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3] .

[من كتاب *La civilisation de l'Islam Classique* نُشِرَ في باريس سنة 1968م (نقله إلى العربية حسني زينة وصدر في بيروت في جزأين سنة 1980 بعنوان «الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي»)] .

قيل عَنْه

نجيب العقيقـي: الـمستشرقـون، ط 4، القاهرة – دار الـمعارف 1980م، 1: 365 – 376

J. M. Mouton, *De Bagdad à Damas- Etudes en memoire de Dominique Sourdel*, Textes rassembles par Jean – Michel Mouton & Clement Onimus, Paris 2018 .

وشارك أصدقاؤه وزملاؤه وتلاميذه، بعد وفاته، في إصدار كتاب مُهْدًى إليه أشرف على تحريره تلـميذاه حون ميشيل موتون وكليمان أونيموس. ويعكس العنوان الذي اختير للكتاب "من بَغْدَاد إلى دِمَشْق" *De Bagdad à Damas* الـمسلك العلـمي لدومينيك سورديل منذ بدايات أعماله الكبرى عن "الوزارة العباسية" – الذي كان موضوع رسالته لدكتوراة الدولة التي ناقشها 1958– وحتى أعماله الأخيرة عن الحياة السياسية والاجتماعية في دمشق من خلال أوراق الجامع الكبير بدمشق التي لـم يتوقف عن دراستها حتى أيَّامه الأخيرة.

وتبدأ الدراسات الـمهداة إليه في هذا الكتاب بدراسة حول الجدل العقائدي الذي عُرِفَ في الوسط البغدادي زمن الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد (مقال جوزيف فان إس) والذي أعقبته دراسة عن نهاية الخلفاء العباسيين في مصر الـمملوكية (لبرناديت مارتيل توميان)

وينتهي الكتاب بخمس مقالات خُصِّصَت للحديث عن الحياة السياسية والاجتماعية بدمشق من خلال شواهد القبور (مقال همام سعد) وكتب التاريخ (مقال كليمان أونيموس) والرحالة الغربيين (مقال جاك بافيو) وأخيرًا أوراق الجامع الكبير بدمشق (مقالات فرنسوا ديروش وجون ميشيل موتون وجانين سورديل تومين). وكانت هناك عديد من الـمراحل بين محطتي هذا الـمسلك استعرضها الـمشاركون تعكس الاهتمامات الـمختلفة لدومينيك سورديل بدءًا من الـمغرب (مقالات ليونيل جالون وجورج جهيل وخوري محفوظ) مرورا بمنْبِج وإقليم الجزيرة (مقال موتيا زويحل) وحلب في سوريا الشمالية (مقال آن ماري إدّه) وكرك نوح في لبنان (مقال كليمان موسيه) الذي شغله في بدايات مسيرته العلـمية انتهاء ببيت الـمقدس (مقال إيلودي هيبون) والشرق الأدنى زمن الصليبيين (مقال جون

ريتشارد). وقد أراد مؤلفو المقالات الخمس عشرة المنشورة في هذا الكتاب إيضاح كيف أن كل الأجيال مجتمعة تدين لإرشادات دومنيك سورديل وأعماله العلـمية.

وهكذا ركَّزَت هذه الدراسات في الأساس على اهتمامات دومنيك سورديل ممثلة في تاريخ العالـم الإسلامي الوسيط، والعلوم الإسلاميـة التـي لـم يتوقف عن الاهتمام بها منذ كتاباته الأولى عـن الخلافـة العباسية وأيضًا حول الآثار واللغويات التي جذبت اهتمامه في مرحلة أو أخرى من مسيرته العلـمية.

Bibliographie de Dominique et Janine Sourdel

DOMINIQUE SOURDEL

Ouvrages

L'Islam, 1 vol., 128 p., coll. *« Que Sais-je ? »,* n° 355, Paris, PUF, 1949, 18e éd., 1995.

Les cultes du Hauran à l'époque romaine, 1 vol., XVI + 136 p., 6 pl. ht., coll. « Bibliothèque archéologique et historique », t. LIII, Paris, Geuthner, 1952.

Inventaire des monnaies musulmanes anciennes du Musée de Cabota, 1 vol., IX + 146 p., 6 pl. ht., Damas, PIFD, 1953.

La description d'Alep d'Ibn Šaddâd, édition critique précédée d'une introduction, 1 vol., XXXII + 231 p. (ar.), 4 p1. ht.. Damas, PIFD, 1953.

Le vizirat ʿabbāside de 749 à 936 (132 à 324 de l'Hégire), 2 vol., LXXVIII + 797 p., Damas, PIFD, 1959-1960.

Histoire des Arabes, 1 vol., 128 p., coll. « Que Sais-je?», n° 1627, Paris, PUF, 1976, 5e éd., 1994.

L'islam médiéval, 1 vol., 224 p., coll. « Sup. L'Historien », n° 39, Paris, PUF, 1979 ; trad. anglaise par J. Montgomery. Watt, *Medieval Islam,* Londres, Routledge and Kegan Paul, 1983.

L'Etat Imperial des Califes abbasides VIII – X siècles, Paris 1999 .

De Bagdad à Damas : études en mémoire de Dominique Sourdel / textes rassemblés par Jean-Michel Mouton et Clément Onimus, Genève: Droz, 2018.

Participation à des ouvrages collectifs

Littérature arabe, dans Histoire générale des littératures, Paris, A. Quillet, 1961, t. I, p. 415-441, 755-763 ; t. III, p. 589-596, 805-807, 811.

Le jugement des morts dans l'Islam, apud *Le jugement des morts, c*oll. « Sources orientales », 4, Paris, Seuil, 1961, p. 179-205.

The ʿAbbāsid Caliphate, apud *The Cambridge History of Islam,* I, 1970, p. 104-139.

Collaboration à R. Folz, A. Guillou, L. Musset, D. Sourdel, *De l'Antiquité au monde médiéval,* 1 vol., 657 p., coll. « Peuples et Civilisations », t. V, Paris, PUF, 1972, p. 187-239, 414-451, 599-622.

L'éducation dans le monde islamique médiéval, apud *Histoire mondiale de l'éducation,* I, Paris, PUF, 1981, p. 203-280.

Gouvernement et administration dans l'Orient islamique jusqu'au milieu du XI^e^ siècle, apud *Handbuch der Orientalistik* (dir. B. Spuler), Leyde, Brill, 1988.

Articles

Les professeurs de madrasa à Alep aux XII^{e}-XIII^{e} siècles, dans *Bulletin d'Etudes orientales de l'Institut français de Damas,* XIII, 1949-1951, p. 85-115.

Esquisse topographique d'Alep intra-muros à l'époque ayyoubide, dans *Annales archéologiques de Syrie,* H. 1952, p. 109-133.

Rûhîn, lieu de pèlerinage musulman de Syrie du Nord au XIII^{e} siècle, dans *Syria,* XXX, 195, p. 89-107.

Le livre des secrétaires de ʻAbdallâh al-Baġdâdi, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XIV, 1952-1954, p. 115-152.

La biographie d'Ibn al-Muqaffaʻ d'après les sources anciennes, dans *Arabica, 1,* 1954, p. 307-323.

Les cadis de Basra d'après Wakîʻ, dans *Arabica,* II, 1955, p. 111-114.

La valeur littéraire et documentaire du *Livre des Vizirs* d'al-Ğahšiyârî, d'après le chapitre consacré au califat de Hârûn al-Rašîd, dans *Arabica,* II, 1955. p. 193-210.

Sur quelques traditionnistes d'Alep au temps de Nûr al-Dîn, dans *Arabica,* II, 1955, p. 353-355.

Une lettre inédite de ʻAlî b. ʻIsâ (317/929), dans *Arabica,* III, 1956, p, 80-90.

Nouvelles recherches sur la deuxième partie du *Livre des Vizirs* d'al-Ǧahšiyârî, dans *Mélanges Louis Massignon,* III, Damas. 1957, p. 271-299.

Fragments Ṣûlī sur l'histoire des vizirs ʻabbâsides, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XV, 1955-1957, p, 99-108.

Les circonstances de la mort de Ṭâhir I^{er} au Hurâsân, dans *Arabica,* V, 1958, p. 66-69.

L'originalité du *Kitâb al-Wuzarâ'* de Hilâl al-Ṣâbîʿ, dans *Arabica*, V, 1958, p. 272-292

La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, dans *Studia Islamica,* XIII, 1960, p. 5-21.

Questions de cérémonial ʿabbâside, dans *Revue des Etudes islamiques,* 1960, p. 121-148.

La politique rcligieuse du calife ʿabbâside al-Ma'mun, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXX, 1962, p. 27-48.

Wazîr et *ḥâǧib* en Occident, dans *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de E. Lévi-Provençal,* Paris, 1962, p. 749-755.

Bagdad, capitale du nouvel empire ʿabbâside, dans *Arabica*, IX, 1962, p. 252-265.

Mahomet et les éludes mohammadiennes d'après deux publications récentes, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXI, 1963, p. 105-110.

A propos des *dix élus,* dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXI, 1963, p. 111-114.

Un trésor de dinars ġaznavidc et salğûqide découvert en Afghanistan, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XVIII, 1963-1964 p. 197-219.

Une inscription ʿabbâside en Syrie du Nord (en collaboration avec S. Ory), dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XVIII, 1963-1964, p. 234-240.

Une lettre du vizir ʿabbâside Ḥamîd b. al-ʿAbbâs (306/918), dans *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Gibb,* 1965, p. 603-608.

Un pamphlet musulman anonyme d'époque ʿabbâside contre les chrétiens, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIV, 1966. p. 1-31 + 1 pl. ht.

Les études arabes à la faculté des Lettres de Bordeaux, apud *Les études islamiques dans le monde,* dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXIV, 1966, p. 203-204.

Une profession de foi de l'historien al-Ṭabarî, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXVI, 196,. p. I77-199.

La classification des sectes islamiques dans le *Kitâb al-Milal d'al-Šahrastânî,* dans *Studia Islamica,* XXXI, 1970, p. 239-247.

L'imamisme vu par le cheikh al-Mufîd, dans *Revue des Etudes islamiques*, XL, 1972, p. 217-296.

Deux documents sur la communauté hanbalite de Damas, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XXV, 1972, p. 141-151 + 2 pl. ht.

Les conceptions imamites au début du XI^{e} siècle d'après le Shaykh al-Mufid, dans *Islamic Civilisation 950-1150,* Oxford, 1973, p. 187-200.

Les cas de déchéance du calife, dans *Mélanges E.R. Labande,* Poitiers, 1974, p. 635-641.

Réflexions sur la diffusion de la madrasa en Orient du XI^{e} au XIII^{e} siècle, dans *Revue des Etudes islamiques,* XLIV, 1976, p. 165-184.

Khalifa (Histoire de l'institution du califat), dans *Encyclopédie de l'islam* (2), IV, p. 970-980 (1977).

Hady-Roger Idris (1912-1978), dans *Revue des Etudes islamiques,* XLVI, 1978 (1980), p. 155-161.

La fondation umayyade d'al-Ramla, dans *Studien zur Geschichte und Kultur des vorderen Orients* (Festchrift B. Spuler), Leiden, 1981, p. 387-395.

La notion d'autorité dans le califat sunnite, dans *La mention d'autorité au Moyen Age,* Paris, PUF, 1982, p. 101-116.

Appels et programmes politico-religieux durant les premiers siècles de l'Islam, dans *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident,* Paris, puf, 1983, p. 111 -131.

Chroniques et sources narratives dans l'Orient islamique médiéval, dans *La chronique et l'histoire au Moyen Age,* Paris, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, 1984, p. 85-99.

Peut-on parler de liberté dans la société islamique médiévale, dans *La notion de liberté au Moven Age, Islam, Byzance, Occident,* Paris, Les Belles Lettres, 1985, p. 119-133.

L'organisation de l'espace d'ans Ies villes du monde islamique, dans *Fortifications, places publiques, portes de ville dans le monde méditerranéen,* Paris, PUPS, 1985, p. 1-11.

La Syrie au temps des premiers califes abbassides (132/750-264/878), dans *Revue des Etudes islamiques,* XLVIII/2, 1980 (1985), p. 155-175.

Universitaires sans université dans les villes des pays d'islam, dans *Milieux universitaires et mentalité urbaine au Moyen Age,* Paris, 1987, p. 119-128.

Les civilisations passées vues par deux historiens musulmans, dans *Revue des Etudes islamiques,* LV-LV1I, 1987-1989, p. 313-318.

Articles dans *Encyclopédie de l'Islam,* 2e édition, 1954 et suiv.

JANINE SOURDEL - THOMINE

Ouvrages

Épitaphes coufiques de Bâb Ṣaghîr, 1 vol., 91 p. et 34 fig., coll. « Les monuments ayyoubides de Damas », livr. IV, Paris, de Boccard, 1950.

Le guide des lieux de pèlerinage d'al-Harawī, texte arabe, 1 vol., XXIX + 141 p. et 7 pl., Damas, PIFD, 1953.

Le guide des lieux de pèlerinage d'al-Harawī, traduction française annotée, LXIV, 232 p., et 4 cartes, Damas, PIFD, 1957.

Islam, apud *Encyclopédie de la Pléiade,* 1. *Le monde non chrétien,* Paris, Gallimard, 1961, p. 933-1087, 2 cartes et 36 fig.

Die Kunst des Islam (en collaboration avec Bertold SPULER), 1 vol., 426 p., 416 pl. ht., 68 pl. en couleur ht., 89 fig., coll. « Propyläen Kunstgechichte », Bd. 4, Berlin, 1973.

Lashkari Bazar. Une résidence royale ghaznévide et ghoride. 1 B : *Le décor non figuratif et les inscriptions,* 1 vol. in-fol., 78 p. et 29 pl. ht., coll. « Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan », t. XVIII, Paris, de Boccard, 1977.

De l'art de l'islam, 1 vol., 200 p., Paris, Geuthner, 1984.

Participation à des ouvrages collectifs

Art de l'islam, dans *Dictionnaire universel de l'art et des artistes,* II, Paris, Hazan, 1967, p. 231-260.

Islamische Baukunst, dans *Lexicon des Mittelalters,* Artemis Verlag, I, p. 1662-1665.

Editeur de *Etudes médiévales et patrimoine turc,* contributions réunies et présentées par Janine Sourdel-Thomine. I vol., 272 p., Paris, CNRS, 1983.

Articles

Inscriptions arabes de Karak Nūḥ, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XIII, 1949-1951, p. 72-84 et 2 pl. ht.

Note sur le cénotaphe de Qūrus (Cyrrhus), dans *Annales archéologiques de Syrie,* II, 1952, p. 134-136.

Deux minarets d'époque seljoukide en Afghanistan, dans *Syria,* XXX, 1953, p. 108-136 et 2 pl. ht.

Une inscription inédite de la madrasa Sulṭāniya à Alep, dans *Annales archéologiques de Syrie,* III, 1953, p. 67-70.

Deux décrets mamelouks de Marqab, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XIV, 1952-1954, p. 61-64.

Les anciens lieux de pèlerinage damascains d'après les sources arabes, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XIV, 1952-1954, p. 65-85.

Le peuplement de la région des « villes mortes » (Syrie du Nord) à l'époque ayyoubide, dans *Arabica,* I, 1954, p. 187-200.

Inscriptions du mausolée d'Abū l-ʿAlā' à Ma'arrat an-Nuʿrnan, dans *Arabica,* II, 1955, p. 289-294 et 4 pl. ht.

Stèles arabes de Bust (Afghanistan). dans *Arabica,* III, 1956, p. 295-306 et 4 pl. ht.

Stèles arabes anciennes de Syrie du Nord, dans *Annales archéologiques de Syrie,* VI, 1956, p. 11-38 et 7 pl. ht.

Le coufique alépin de l'époque seljoukide, dans *Mélanges Louis Massignon,* III, Damas, 1957, p. 301-317 et 4 pl. ht. (traduction turque par Zeynep Kerman dans *Tarih Dergisi,* n° 26, p. 85-96).

Les décors de stuc dans l'est iranien à l'époque salğūqide, dans *Akten des Vierundzwanzigsten Internationalen Orientalisten-Kongresses,* München, 1957, Wiesbaden, 1959, p. 342-344.

Survivances anciennes dans l'art musulman de Syrie, dans *Arabica,* VI, 1959, p. 312-313.

L'art gūride d'Afghanistan à propos d'un livre récent, dans *Arabica,* VII, 1960, p. 273-280.

Les conseils du Šayḫ al-Harawī à un prince ayyūbide, dans *Bulletin d'Etudes orientales,* XVII, 1961-1962. p. 205-266.

Le style des inscriptions arabo-siciliennes à l'époque des rois normands, dans *Etudes d'orientalisme dédiées à 10 mémoire de Lévi-Provençal,* Paris, 1962, p. 307-315.

L'art de Bagdad, dans *Arabica,* IX, 1962, p. 449-465 et 2 pl. ht.

Quelques étapes et perspectives de l'épigraphie arabe dans *Studia Islamica*, XVIII, 1962, p. 5-22.

L'écriture arabe et son évolution ornementale, dans *L'écriture et la psychologie des peuples*. *XXII*[e] *semaine de synthèse*, Paris, 1963. p. 249-261 et 3 pl. ht.

Deux épitaphes arabes anciennes, dans *LA. Mayer Memorial Volume,* Jérusalem, 1963 *(Eretz-Israël,* vol. VII), p. 112-115 et 1 pl. ht.

Peinture arabe et société musulmane à propos d'un livre récent, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXI, I963*,* p. 115-121.

L'architecture islamique de l'Iran, dans *Art et littérature en Iran,* ouvrage publié sous le patronage de la revue Orie*nt,* Paris, 1964, p. 77-94 et 8 pl. ht.

Inscriptions et graffiti d'époque umayyade, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXII, 1964, p. 115-120.

Le classement des documents de Max van Berchem à Genève, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIII, 1965, p. 195-197.

Le testament politique du Shaikh ʿAli al-Ilarawi, dans *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Gibb,* 1965, p. 609-618.

Les origines de l'écriture arabe à propos d'une hypothèse récente, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXIV, 1966, p. 151-157.

Art et société dans le monde de l'islam, dans *Revue des Etudes islamiques, XXXV1,* 1968, p. 93-114.

Perspectives nouvelles dans le domaine de l'épigraphie arabe, dans *Boletin de la Asociacion española de Orientalistas,* V, 1969, p. 183-190.

Monuments islamiques de Tunisie d'après quelques travaux récents, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXVII,1969, p. 345-349.

Inscriptions et monnaies, apud K. Otto Dorn, Bericht Uber die Grabung in Kobadabad 1966, dans *Jahrbuch des deutschen archäologischen Instituts Archäologischer Anzeiger,* Heft 4, 1969, p. 500-505.

Les dates de construction de l'Agzikarahan d'après ses inscriptions, dans *Forschungen zur Kunst Asiens*, Istanbul, 1970, p. 74-78.

La mosquée et la madrasa, types monumentaux caractéristiques de l'art islamique médiéval, dans *Cahiers de civilisation médiévale, XIII,* Poitiers, 1970, p. 97-115.

Clefs et serrures de la Kaʿba. Notes d'épigraphie arabe, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXIX, 1971, p. 29-86 et 10 pl. ht.

Le mausolée dit de Baba Hatim en Afghanistan, dans *Revue des Etudes* islam*i*ques, XXXIX, 1971, p. 293-319 et 14 pl. ht.

A propos de quelques catalogues de musées et expositions, dans *Revue des Etudes islamiques,* XL, 1972, p. 393-397.

Quelques réflexions sur l'écriture des premières stèles arabes du Caire, dans *Annales islamologiques (Mémorial Gaston* Wiet), XI, 1972, p. 23-35.

Renouvellement et tradition dans l'architecture saljuqide, dans *Islamic Civilisation, 950-1150,* Oxford, 1973 p. 251-263.

Inscriptions seljoukides et salles à coupole de Qazwin en Iran, dans *Revue des Etudes islamiques,* XLII, 1974, p. 3-43.

Introduction à l'art de l'islam, dans *Revue des Etudes islamiques,* XLIII, 1975, p. 3-40 et 195-225.

Locaux d'enseignement et madrasas dans l'islam médiéval, dans *Actes du 1er Colloque de La Napoule : Islam et Occident au Moyen Age, Revue des Etudes islamiques,* XLIV, 1976, p. 185-197.

Art et grandeur dynastique dans l'Orient islamique du XIIe siècle, dans *Revue des Etudes islamiques,* XLV, 1977 p. 3-17.

Khaṭṭ dans *Encyclopédie de l'islam,* IV, p. 1144-1154 [1978].

Kitabât I, dans *Encyclopédie de l'Islam,* V, p. 208-213 [1980].

Lashkari Bazar, dans *Encyclopaedia Universalis,* 1980, p. 477-481.

Réflexions sur l'art islamique du bas Moyen Age en Orient, dans Hans R. ROEMER und Albrecht NOTH, *Studien zi Geschichte und Kultur des Vorderen Orients, Festschrift für Bertold Spuler zum siebzigsten Geburtstag,* Leyde, 1981, p. 396-405.

A propos du cénotaphe de Mahmud à Ghazna (Afghanistan), dans *Essays in Islamic Art and Architecture in Honor of Katharina Otto-Dorn,* Undena Pub, 1981, p. 127-135, 1 pl. ht.

L'expression symbolique de l'autorité dans l'art islamique, dans La *notion d'autorité au Moyen Age, Islam, Byzance et Occident,* Paris, PUF, 1982, p. 273-286.

Le chaykh ʿAli al-Harawi *et* la propagande politico-religieuse dans la Syrie du XIII^{e} siècle, dans *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance et Occident,* Paris, PUF, 1983, p. 241-255.

Etudes médiévales et patrimoine turc, dans *Etudes médiévales et patrimoine turc,* Paris, CNRS, 1983, p. 7-13.

L'Etat ayyoubide vu par un homme de religion de cette époque, dans *Israël Oriental Studies,* X, 1980, p. 124-131.

Libertés et liberté de l'artiste dans le monde islamique médiéval, dans *La notion de liberté au Moyen Age (Islam, Byzance, Occident),* Paris, Les Belles Lettres, 1985, p. 143-154.

Une image musulmane de Jérusalem au début du XIII^{e} siècle, dans *Jérusalem, Rome, Costantinople, Civilisations médiévales*, n° 5, Paris, PUPS, 1986, p. 217-230.

Traditions d'emprunt et dévotions secondaires dans l'islam du XII^{e} siècle, dans *Revue des Etudes islamiques, LV,* fasc. 1, 1987-1989, p. 319-327.

Articles dans *Encyclopédie de l'Islam*, 2^{e} édition, 1954 et suiv.

DOMINIQUE et JANINE SOURDEL

Ouvrages

Index analytique de l'œuvre de Jean Sauvaget, Mémorial Sauvaget, t. II, 1 vol., XXVII + 284 p., Damas, PIFD, 1961.

La civilisation de l'Islam classique, 1 vol., 676 p., 224 pl. ht. en couleur, 65 fig. et 4 cartes, coll. « Les Grandes Civilisations », Paris, Arthaud, 1968, 2e éd. 1976, 2e éd. révisée, 1983.

Dictionnaire Historique de l'Islam. Paris - puf 1996 , 2004 .

Vocabulaire de l'Islam , Que sais – je ? , Paris 2002 .

Participation à des ouvrages collectifs

Editeurs *(*en collaboration avec George Makdisi) du l[er] Colloque international de La Napoule, *L'enseignement en Islam et en Occident au Moyen Age,* 1 vol., XII + 314 p., Paris, Geuthner, 1977; du II[e] Colloque international de La Napoule, *La notion d'autorité au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident,* 1 vol., 286 p., Paris, PUF, 1982 ; du III[e] Colloque « Penn-Paris-Dumbarton Oaks », *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident,* 1 vol., 279 p., Paris, PUF, 1983 ; du IV[e] Colloque « Penn-Paris-Dumbarton Oaks », *La notion de liberté au Moyen Age,* 1 vol., 287 p., Paris, Les Belles Lettres, 1985.

Co-direction du *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe,* t. XVII, Le Caire, IFAO, 1982, et t. XVIII, 1991.

Certificats de pelerinages d'epoque ayyubide . Contribution a l'histoire de l'ideologie de l'Islam au temps des Croisades . Paris 2006 .

Mariage et séparation à Damas au Moyen Âge : un corpus de 62 documents juridiques inédits entre 337-948 et 698-1299 (Documents relatifs a l'histoire des croisades XXI),/ publiés et présentés par Jean-Michel Mouton , Paris – l'Academie des Inscriptiond et Belles – Lettres 2013 .

Gouvernance et libéralités de Saladin : d'après les données inédites de six documents arabes / Jean-Michel Mouton, Dominique Sourdel, Janine Sourdel-Thomine ; avec un appendice de Jean Richard, Paris: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2015 .

Propriétés rurales et urbaines à Damas au Moyen Age : un corpus de 73 documents juridiques entre 310/922 et 669/1271 (Documents relatifs a l'histoire des croisades 23)/ publiés et présentés par Jean-Michel Mouton, Dominique Sourdel, Janine Sourdel-Thomine, 559 pp., Paris – l'Academie des inscriptions et Belles – Lettres 2018 .

Articles

Notes d'épigraphie et de topographie sur la Syrie du Nord, dans *Annales archéologiques de Syrie,* III, 1953, p. 81-105. Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et sociale de Damas au Moyen Age, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXII, 1964, p. 1-25.

A propos des documents de la Grande Mosquée de Damas conservés à Istanbul. Résultats de la seconde enquête, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXIII, 1965, p. 73-85.

Publication de l'étude posthume de Jean Sauvaget, Introduction à l'étude de la céramique musulmane, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXIII, 1965, p. 1-72 (postface p. 69-72).

Trois actes de vente damascains du début du IV^{e}-X^{e} siècle, dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* VIII/2, 1965, p. 164-185.

Publication de l'étude posthume de Jean Sauvaget, Châteaux umayyades de Syrie, dans *Revue des Etudes islamiques,* XXXV, 1967, p. 1-52 (postface p. 50-52).

Biens fonciers constitués waqf en Syrie fatimide pour une famille de *šarîf* damascains, dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* 1972, p. 269-296 + 7 pl. ht.

Un acte de vente arabe portant sur la région d'Ahlat au VII[e]-XIII[e] siècle, dans *Tarih* Araştırmaları *Dergisi,* VI, 1968 (1972), p. 51-60 + 7 pl. ht.

Un sanctuaire chiite de l'ancienne Balis, dans *Mélanges d'islamologie (volume dédié à la mémoire de Armand Abel),* Bruxelles, 1974, p. 247-253 + 2 pl. ht.

Un texte d'invocations en faveur de deux princes ayyubides, dans *Near Eastern Numismatics, Iconography, Epigraphy and History (Studies in Honor of George C. Miles),* Beyrouth, 1974, p. 347-352.

Une collection islamique ancienne de textes de prières, dans *Recherches d'islamologie (Mélanges Anawati-Gardet),* Louvain, 1978, p. 285-294.

A propos des monuments de Sangbast, dans *Iran (Mélanges Basil Gray),* XVII, 1979, p. 109-114 et t pl. ht.

L'évolution de la ville islamique, dans *Encyclopaedia Universalis, Supplément,* 1980, p. 1491-1496.

Islam, la civilisation du palais, dans *Encyclopaedia Universalis, Supplément,* 1980, p. 819-823.

Nouvelle lettre d'un docteur hanbalite de Damas à l'époque ayyoubide, dans *Journal of the Near Eastern Studies (Mélanges N. Abbott),* 40, 1981, p. 265-276.

Dossiers pour un Corpus des inscriptions arabes de Damas, I, dans *Revue des Etudes islamiques,* XLVII, 1979 (1983), p. 119-172.

Une collection médiévale de certificats de pèlerinage à la Mekke, conservés à Istanbul, dans *Etudes médiévales et patrimoine turc,* Paris, CNRS, 1983, p. 167-273.

Les villes portuaires de l'Orient méditerranéen pendant le haut Moyen Age d'après les sources arabes, dans *Colloque sur la cité portuaire médiévale,* 1985.

Deux actes de vente damascains du bas Moyen Age, dans *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon,* Jérusalem-Leyde, 1986, p. 517-525.

Un acte notarié d'époque bouricie : pouvoir politique et propriété immobilière dans un quartier de Damas au XII^{e} siècle (en collaboration avec J.-M. Mouton), dans *Annales islamologiques,* XXIX, 1995, p. 59-74.